قمبيز

والزهرة السمراء

رواية

عبد الرحمن بكر



مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : قمبيز والزهرة السمراء

المــؤلف : عبد الرحمن بكر

رسوم داخلية : د. ياسر نصر

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢١٠٤٣

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى ابنتي نورزاد، حلمي الأكبر، وزهرتي اليانعة، وابتسامة الحياة، لتفخر يومًا أنها امرأة و تعلم أن مِن النساء من زلزلوا عروشًا، وأنقذوا شعوبًا، عندما أدركوا حكمة الله في أن جعلهم النوع الأضعف عندما يريدون، و الأكثر صمودًا عندما يحبون.

عبد الرحمن بكر

قبل البداية



كان غزو «قمبيز» لمصر عام (٥٢٥ ق.م) من أسوأ الأحداث التي تعرضت لها البلاد، فقد أعد لحملته كل ما استطاع من قوة، وجعل من فلسطين قاعدة لتحركه نحو مصر، وعندما عسكر بالقرب من مدينة غزة كان يخشى أن يفقد نصف جيشه تحت رمال الصحراء بسبب قلة توافر الماء، ولكن الأقدار جعلت رجلاً إغريقيًا يدعى «فانيس» (كان قائدا لفرقة من المرتزقة الأغريق الموالين لجيش مصر)، ينحاز إلى جيش «قمبيز» ويخون الفرعون «أبسماتيك الثالث».. فوشى فانيس بخطط المصريين التي أعدوها لمقاومة الحملة، كما استفاد جيش الفرس بخبرته في مسالك الصحراء، وسهل لهم الاتصال ببدو سيناء وعقد معهم العهود والاتفاقيات لإمداده بالماء و المئونة طوال رحلته عبر الصحراء «وأكملت الخيانة دورها في وصول الفرس إلى عرش مصر حين قام «وزاحررسن» قائد الأسطول المصري بخيانة ملكه وشعبه، وفتح المعابر للفرس مقابل حفنة من الذهب، وبعض المناصب الدينية، والاجتماعية التي كان يحلم بها، فدخلوا مصر برًا وبحرًا.. وأسر الملك الفارسي « قمبيز» فرعون مصر، وقام بمحاولات رهيبة لإذلاله، لكن الشعب المصري مازال وسيظل لا يخضع لغزو، مهما بلغت شدته، و لا يحني هامته لغازٍ.

شخصيات الرواية



«**قمبيز**» : الملك الفارسي الشاب الذي غزا مصر، وطمح في أن يمتلك العالم.

«**نيتيتس**» : الأميرة المصرية التي تزوجها قورش ملك الفرس وأنجب منها قمبيز

«**داشيتا**» : الأميرة المصرية التي جاءت من بلاد كوش لتنتقم لمقتل أهلها.

«**حاروز**» : ابن ملك بلاد «كوش» السودان المحب لديشيتا..

«**أبسماتيك الثالث**» : ملك مصر الذي أراد قمبيز أن ينتقم منه ويعمل على إذلاله.

«**أحمس أماسيس**» : الفرعون الذي تسبب بغدره في احتلال الفرس لمصر، ومات قبل دخولهم إليها، وهو أيضًا والد أبسماتيك الثالث.

«**كنترياس**» : الحكيم والمعلم الذي تربى على يديه قمبيز.

«**توزوي**» : القائد العسكري المصري المخلص الذي دافع عن بلاده.

«**وزحاررسون**» : الطبيب والقائد العسكري للأسطول المصري الذي خان بلاده وفتح المعابر للفرس.

«**فانيس**» : قائد جيش الإغريق الموالي لمصر، والذي انسحب بجنده وقت الشدة، وعاون جيش الفرس على اجتياز الصحراء.

«**ميجا**» : الوزير الأعظم لملك الفرس، وهو رجل حاد الذكاء شديد المكر.

«**نستانس**» : ملك بلاد كوش، وأبو «حاروز» الذي تحدى ملك الفرس.

«**راجيت**» : وصيفة للملكة نيتيتس.

«**طاهو**» : جاسوس من جواسيس الملكة.



«داشيتا» المغامرة



مازالت تركض هاربة في خقول الليل، تتحرك في رشاقة خيالية، وقوسها يرفرف في يدها، وسهامها تتهادي على كتفها.. كل شيء يلاحقها، أنفاسها اللاهثة تتسابق نحو قارب النجاة.

كان القلق قد استبد بـ«حاروز» وتملك خوفه عليها قلبه الفَتِي وهو ينتظرها على ظهر القارب المختفي في ظلام الليل، وعيدان البوص، و أزهار اللوتس الزرقاء الطافية على صفحة النيل.

وما هي إلا دقائق وظهرت «داشيتا» وهي تشق الريح كالغزال النافر مندفعة نحو حافة النهر، بثوبها الأبيض الناعم الفضفاض، وحذائها الجلدي الأملس الذي تلمع نقوشه الذهبية، فأضاء «حاروز» شعلته لتستدل على مكانه، وارتفع بقامته السمراء الفارعة وهو يشير إليها بيده، وفي لحظات كانت تقفز في جوف القارب وهي تطلب منه أن يطفيء النار كي لا يعرفوا مكانهما.

جدّف «حاروز» بكل ما أوتي من قوة، أخذت ضربات مجدفيه تمزق ما تبقى للنهر من سكون.

لم تكن حياته ذات أهمية كبيرة بالنسبة له، لكن حياتها تساوي عنده الكثير، مازالت الأصوات والرماح الطائشة تتبع أثرها.. وراح القارب يشق الماء مدفوعًا بشدة التيار وقوة ساعديه، وهو يرسل نظراته الحذرة ما بين الضفة والشاطئ الآخر باحثًا عن

أماكن الاختباء، وسط أعواد الغاب و النباتات المائية الطويلة الطافية على سطح النهر.

مر الوقت وقد خيم على الجو صمت ثقيل.. ولما اطمأن« حاروز» لبعد المسافة واختفاء الأصوات التي كانت تطارده، تنهد مرتاحًا لنجاتها، وبدأ يُخفف من انفعاله ويداعب ماء النيل بمجدافيه.. و كأنما يمحو عنه آثار الضربات القوية بلمسات حانية فرغم كل هذا الخطر كانت تلك الليلة مقمرة سماؤها صافية..

كم عشق هذا النيل، المنساب تحت ضوء القمر الساحر كأنه نهر من الفضة المذابة يداعب الظلام، ويضفي على الليالي المقمرة جمالا خلابًا، وكم داعبت أنفه رائحة النسيم المُشبعة بعبق الياسمين، وأزهار الفل..

نظر خلسة نحو عينيها الواسعتين الساحرتين الحزينتين وهذا الخط الرشيق من الكُحل الذي ظللهما.

كانت تنظر في قلق نحو بريق المشاعل الخافتة الباحثة عنها و التي بدأت تتلاشى مع بعد المسافة.. رأى الضوء الفضي اللامع ينعكس عليهما.. عاش في أحلامه وهو ينطلق بها في هذا العالم الساحر.. و للحظات شعر بأنهما ورقتان هائمتان على صفحة النيل الخالد قد فقدتا أي ارتباط لهما بالبستان.

تذكر صباهما، لقد تربيا معًا في قصر واحد، لكنها كانت دائمًا كالشمس تجمع حولها الكواكب الصغيرة فيدورون سعداء في فلكها.. أما هو فقد كان ظلها دائمًا.!!

التفتت إليه.. فغض بصره المفتون بجمالها خجلاً ولاذ بالصمت.. هذه السمراء لها جمال فتان تميزت به عن سواها من نساء بلاد كوش «السودان» ربما لأنها مصرية الأصل، ملكية الدماء، ولكنها ولدت وعاشت مع أهلها في جنوب الوادي، و أخيرًا سألها بهدوء وكأنه يتوقع الإجابة:

ـ هل أصابه سهمك هذه المرة..؟

قالت وهي تُحصي ما تبقى في كنانتها من سهام:

- لا.. كانت المسافة بعيدة جدًا.. لكن حارسه أصيب، إصابة بالغة، وقد جن جنونه وأرسل كتيبة من الجيش خلفي لتطاردني..

زاد وجهه انفعالاً:

- هل أصابك مكروه.

لاح على وجهها خيال ابتسامة..

- لم يصلوا إليَّ.. لقد ركضت بسرعة، وفي ثواني معدودة كانت المسافة قد اتسعت بيني وبينهم فحمدت الإله على نعمة الأدغال التي تربينا فيها.. هل تذكرها.؟

لمعت عيناه من السعادة، وابتسم مُظهرًا بريق أسنانه البيضاء.. قائلا:

- مازلت أعيش فيها.. وأنتِ ألا تداعبك أحلامك يا «داشيتا»..؟

حولت وجهها نحو سحابات الغيوم الرصاصية التي بدأت تسلُب القمر ضوءه، كي توقف تدفق الحديث الذي بدأ ينحدر في مضيق تحذره، وجاءه صوتها باردًا وقاطعًا كحد سيف:

- لم أعد أحلم أبدًا يا «حاروز» لم أعد أحلم.. أسرع فطريقنا مازال طويلاً.

ازدادت ضربات مجدافه قوة وقسوة، وتناثر رذاذ الماء حتى بلل وجهه الذي اندفعت فيه دماء الخجل مصحوبة بشيء من الغضب والضيق ثم غير مجرى الحديث قائلاً:

- حسنًا لا تخشي شيئًا يا «داشيتا» فلن يلحقوا بنا.. و قبل الفجر سنكون قد عبرنا إلى أبعد نقطة من الوادي حيث الأمان بعيدًا عن جنده، ونختفي بعدها بين العمال و الفلاحين.

لفحته بنظرة غاضبة، وقالت برد فعل سريع:

- ماذا..؟؟ لن نعبر ولن نختفي بل سنسير بمحاذات الشاطيء ثم نعود جنوبًا إلى منف ونعاود الكرة في المساء، لن أستريح حتى أراه صريعًا.

- كما تشائين.. خشيت عليك فقط..

«هو يعلم أنه لن يستطيع منعها و لن يغير من اتجاه عزيمتها قيد أُنملة.. فمقتل كل من تحبهم معًا في المعركة «الزوج، والأب، والأخ» قد غير من طباعها فازدادت حدة، ولم تعد ترى أمامها سوى هدف واحد.. أن يمزق أحد سهامها قلب«قمبيز» ملك الفرس وأن تنتقم منه لكل من فقدت، وأن تغلف نصره المزعوم بدمائه حتي تأكل جسده الأرض التي اعتدى عليها، وقتل أهلها.

أما «حاروز» فلم يعد يستطيع الانفصال عنها كما لا يستطيع الظل أن ينفصل عن الجسد، و لا يملك إلا أن يطيعها ليحميها، حتى من نفسها.. إن استطاع!؟



رأس مرتفع لملك منهزم



عيناه تراقبان في يأس فلول جيشه المنهزم...لقد مرت الأحداث الأخيرة أسرع مما كان يتوقع.. لم تتمكن بلدة «بلوزيوم» (السويس) من الصمود رغم مقاومتها العنيفة للجيش الفارسي ومن بعدها سقطت مدينة «عين شمس» وهاهو الجيش الفارسي قد شق طريقه وواصل زحفه إلى أن وقعت مدينة « منفيس» وحوصرت «صاه الحجر» عاصمة مملكته.. تحطمت أسوار قلعة «منف» ، وحاميتها تلاشت.. وتفرق زَبد البحر، ومن حاول الصمود قُتل وأُسر..

لاشيء يوازي شعور الهزيمة، ووقعها في نفس ملك عظيم.. فرعون.. ملك الدنيا ودانت له الممالك.. كم تمنى أن ينال شرف الموت مدافعًا عن أرضه، وبذل كل ما يستطيع في ساحة النضال..تمنى أن يغرب كما تغرب الشمس، ولا يرى بعينيه، انهيار بناء الأجداد..

حتى هذا الشرف لم يرضه له «قمبيز»، ملك الفرس و إنما أراد أن يراه منحنياً في قيود الأسر، فقد عشق رؤية الذل و الانكسار في عيون العظماء.. دموع الملوك.. هذا وحده هو قمة النصر الذي يرتضيه..

لكن «أبسماتيك» الثالث الفرعون المهزوم، كان ما يزال متماسكًا رغم القيود.. يراقب سيطرة القوة الهمجية، و محاولتها محو التاريخ..

لاحت على وجهه ابتسامة مريرة وتذكر كم كان من قبل يعتبر أن انفصال زوجين.. انتهاء لحضارة صغيرة!! فما بال احتلال هؤلاء الفرس الغادرون لحضارة منظمة وعميقة الجذور، حضارة علمت الدنيا.

إنها الليلة العاشرة له منذ أن وقع في الأسر ومازال مقيدًا بالسلاسل في هذه الساحة الفسيحة ينتظر انتقام ملك الفرس المنتصر ويتعجب لماذا يُبقيه هكذا في قيده عشرة أيام كاملة.!؟

فقد الكثير من رعيته ومحبيه حياتهم في محاولاتهم لإنقاذه.. لكنه ظل طوال تلك الفترة المنصرمة يردد دائمًا في نفسه : قد ينالون رأسي لكنهم لن ينالوا من كبريائي، فمازالت عيون الأسرى و الفلاحين تراقبني، تتعلق في ذهول بقيدي، وهم مازالوا ينتظرون مني الكثير، و كأنهم لم يدركوا بعد أن الفرعون، الذي أعتادوا أن يرفعوه إلى درجة التأليه والعبادة، وجعلوه ابنًا لأمون مجرد إنسان مثلهم، عند تقلب الزمان وارتفاع الوضيع وانخفاض الكريم، يمكن أن يُساق في قيدٍ حديدي يشبه قيودهم.!! ولكن ما أدركه أنا، وتأبى علي كرامتي أن أتراجع عنه، هو أن لدي كبرياء لا يتزلزل ولا ينكسر،.. و في انكساري تمام الانكسار لهم.

تبسم ساخرًا وهو يتلفت حوله ويرى جموع من كانوا بالأمس من السادة و القادة والكبراء هم أيضًا في قيودهم قريبًا منه.!! فقال بصوتٍ أقرب للهمس:

- يالسخرية القدر مازال مجلسي مكتملا رغم الهزيمة.. إن قمبيز قد جمعنا في هذا المكان لأمر أراده.

«توزوي» قائد جيشه، وصديقه القديم، ورفيق صباه لاحظ شروده وملله من انتظار المجهول.!! خاف أن يفت طول الأمد وشعور الأسر من عزيمته، وهو الفرعون الذي تتعلق به عيون من بقي من جيشه المنهزم، ومن يتطلعون إليه من أهل المدينة، حاول بصعوبة أن يقترب منه مجرجرًا أغلاله التي كانت أكثر بكثير من

قيود أي أسير، حتى الفرعون نفسه، فهو القائد المفتول العضلات القوي البنية، الذي مزق سيفه حشود الفرس، وسقطت حوله كتائب من جيوشهم قبل أن يُكسر آخر سيف وصلت إليه يداه، ويقع في الأسر، نعم لقد كان سقوطه حلمًا راود قادتهم طوال الشهور التي خاضوها ضده في المعركة..

أقترب أخيرًا من الفرعون، نظر إليه بقوة قائلاً:

ـ سيدي إلى متى الانتظار، و النهاية معروفة فلماذا يغلفون شرف الموت في قيد الذل..؟ ما أحمقهم، أيحسبون أننا نخاف الموت أو نخشاه، أو حتى نرتجف للقياه..!!، إن كان هذا هو حلم ملك الفرس، فإنها حقًا أحلام العصافير..

همهم «ابسماتيك» ساخرًا:

ـ سيدك.. لا تقلها مرة أخرى يا «توزوي» فهذا زمان مضى، فقد ساوى بيننا جميعًا هذا القيد.

ـ ولكنك ستظل أبدًا سيدي ومولاي، حتى بعد أن نلتحق بموكب إيزيس ويغطينا التراب، ولو استطعت أن أفديك بدمي ألف مرة لفعلت.

ـ حتى في هذه اللحظات المريرة تريد أن تفتديني، حقًا أصدقاء الشدة قليلون.

حدق « توزوي» في الأغلال التي تتحدى حريته قائلاً:

ـ أليس من الإنصاف يا مولاي أن يموت المحارب الشريف بين صليل السيوف؟؟

لم يكن ساعتها «أبسماتيك الثالث» يستمع إليه فقد انصرفت عيناه إلى متابعة غروب شمس اليوم العاشر الذي بدأ يُسيطر على كل شيء في الكون، فكم عشق في الشمس غروبها، ووقف طويلا يتأمله.. يبحث عن أسرار الحياة والموت.

يتابع غفوتها، ويستقبل صحوتها.. يرى في القيام بعد الانهيار سرًا من أسرار

الخلود.. لكنه الآن يراها تحتضر.. تختفي بعد أن أخذت معها حضارة عميقة وتاريخًا طويلاً.

مازالت الأفكار سابحة في عقل الفرعون الشارد الذي أثقلته الهموم، وحطمه الكدر.. كما أثقلت القيود و الأغلال يديه الداميتين، أخذته الأفكار إلى البداية وراح يستعيد الأحداث كمن أفاق لتوه من كابوس ثقيل.

تأخر اعتلاؤه للعرش كثيرًا حتى بلغ الخمسين من عمره، وبدأ جسمه القوي في الترهل وتناثر الشعر الأبيض على جانبي رأسه، فزاد من هيبته التي جملتها ابتسامته الهادئة الصافية، وعُمق نظرات عينيه، و لم يكن يشغله سوى حبه لأبنائه، وتعليمهم ماقد عشقه من فنون الحضارة حتى كاد ينسى أن له عرشًا لابد أن يعتليه يومًا..!! فأبوه الفرعون أحمس الثاني (أمسيس)، قد عَمّر كثيرًا، وعاش حياته الطويلة بين البناء والدهاء، حكم أربعةً و أربعين عامًا، لم يستطع أحد أن يجره إلى حرب سوى بعض المعارك الصغيرة التي خاضها في بداية حكمه ووضع بها حدودًا لتدخل الإغريق في البلاد..!! ليؤمن حدود مملكته و يزرع الرهبة في نفوس البلاد المجاورة.. حتى العرش حصل عليه بالحيلة والمؤامرة« فهو من عامة الشعب وقد نجح في السيطرة على الحكم و انتزاعه من الفرعون «أبريز» بعد أن أصبح قائدًا لجيشه، فتآمر عليه و انتهز فرصة محاباة ومجاملة «أبريز» للإغريق رغم كره الشعب لهم، و تكوينه لجيوش ضخمة من المرتزقة، وتسريحه للجنود المصريين، في محاولة لاغتصاب الحكم هو وجنوده من طائفة «المشوش»، وبتولية نفسه فرعونًا تغيرت الأسرة الحاكمة.



سيدي إلى متى الانتظار، و النهاية معروفة فلماذا يغلفون شرف الموت في قيد الذل..؟

لم يشعر الشعب بالاحترام نحوه لأنه من العامة ولا تسري في عروقه الدماء الملكية، لكنه استطاع بدهائه أن يرضيهم بعد أن خاطبهم بدون كبرياء وبسط لهم، من ردائه وإن كان نفوذ الكهنة قد غدا عبئًا يرهقه ويعكر عليه صفو الحياة، فلم يجد معهم حيلة سوى أن أغدق عليهم الأموال والذهب لينال رضاهم، وقام بتخفيف الضرائب.. التي رفعها مرة أخرى على مدى السنين الطويلة إلى أضعاف ولكن بالتدريج.. ونجح بذكائه في وضع نُظم جديدة لقواعد التجارة في مستعمراته الإغريقية و ملأ خزائن البلاد بالذهب والجواهر الثمينة.. لقد كان فرعونًا عظيمًا، كما يقول كهنته الذين بلغوا أقصى درجات الثراء في عصره..

ولكن هل كان عظيمًا حقًا..؟

لطالما اعترض « ابسماتيك» على وسائل عظمة أبيه، فمقياس مجد الرجال العظماء عنده هو وسيلتهم إلى كسب هذا المجد.

لم ينخدع بمنطقه الملتف.. رغم براعته..!!

كان دائمًا يقول في نفسه: « المنطق قد يضللنا أما القلب فلا.

رغم ذلك فلم يكن (أبسماتك الثالث) يومًا رجل حرب فقد ظل طوال حياته محبًا للعلم والطب ، درس فنون الزراعة والري... عاش بين الفلاحين في المزارع، وبين الكهنة والنحاتين في المعابد.. يتابع المجد الحقيقي.. مجد الحضارة و الإنسان.. لكن المُلك يورث بأمجاده و أعدائه.

و هاهو قد آل إليه الحكم أخيرًا بعد أن توفى الملك «أحمس الثاني» ودفن في الحي المقدس للآلهة «نيت» بمدينة «سايس»، وصار فرعونًا و ملكًا على مصر في أخطر فترة يمكن أن يتولي فيها إنسان.

رفع القائد «توزوي: رأسه متأملاً.. ثم حدث سيده ساخرًا:

- حتى القمر الذي أحبه حين أراد أن يخترق الظلام، و يظهر للدنيا هُزم..

خنقه دخان النيران المشتعلة في المزارع، هذه النيران الحمقاء التي يعبدها هؤلاء المجانين.

هز الفرعون رأسه قائلاً:

ـ ما أقسى الهزيمة يا «توزوي»..!

ـ و هل هُزمنا حقًا يا سيدي..؟ إنها خيانة «فانيس» الأغريقي قائد المرتزقة، و بدو الصحراء لنا.. وهذا اللعين الذي يدعى «وزاحر راسن» قائد أسطولنا البحري الذي باعنا للفرس، بعد أن أغروه ببريق الذهب.

ـ النتيجة واحدة رغم كل شيء، انظر يا «توزوي»، الجثث تملأ أرض المعركة.. مصر كلها.. لا فرق بين جندي و فلاح، بين سادة وعبيد..

ـ مولاي لقد كان الكل معك.. يحاربون بقلوبهم.

نظر «أبسماتيك» إلى الأفق قائلاً:

ـ ستة أشهر مرت منذ توليت الحكم، نشرت فيها ما أمكنني من عدل، وجهزت ما استطعت من الجند لعلي أستطيع أن أمنع خطر الفرس القادم..

تنهد «توزوي»:

ـ ما حدث في مصر خطأ عسكري فادح يا سيدي، و كم نبهت إليه الفرعون الراحل «أحمس أماسيس» لكنه لم يستمع لي.

أحنى «أبسماتيك» رأسه في حسرة:

ـ لم يكن أبي يستمع لأحد يا «توزوي».

ـ نعم يامولاي، كان يميل إلى الأجانب، رغم ما يعلمه من أن الشعب ما نقم على من قبله إلا لأنه كان يؤثر اليونانيين بحظوة أثارت عليه المصريين جميعًا فقد أطال زمن السلم، وفتح باب الجندية للإغريق اليونانيين والزنوج، و اندس العبيد

في الجيش فكثر فيه المرتزقة، و قل فيه عدد المصريين، ومن تبقى منهم أبعده عن ساحات التدريب.

- نعم فقد تركهم يختالون في النعيم ويتباهون بملابسهم العسكرية الأنيقة كالطواويس بين بسطاء الفلاحين و جعل الأجانب يعيشون في ترف ويتحكمون في المصريين ويمتصون دماءهم، وانشغل هو في معارك مع كهنته، بينما الفرس ينون قوتهم ويزحفون من الشرق إلى الغرب كمارد جبار يبتلع الشعوب حتى غدو يسيطرون على نصف العالم....

- بالفعل لقد أدركنا في المعركة أنهم صاروا جنود قصور، لا جنود قلاع وثغور.

تنهد «توزوي» بحسرة:

- كان بإمكاننا الصمود أكثر ومنعهم من دخول مصر لكنها الخيانة يا مولاي، جعلت من البرابرة ملوكًا وفتحت لهم أبواب صحرائنا. و منافذ بحارنا، فجاءونا برًا وبحرًا.

نظر «أبسماتيك» بحزن إلى القيد الذي في يديه، وشعر بغصة في حلقه، فمازال يشعر بطعم المصاب الفادح مُرًا في مذاقه ثم قال وهو يُبعد وجهه عن توزوي، وكأنما يتقي نظرت عينيه.

- لا مجال للندم، لم يكن باستطاعتنا أن نفعل أكثر من ذلك.

ففلول الفُرس الجرارة كانت كالسيل العارم.. أعدادًا لا حصر لها خاضت حروبًا و فتحت عوالم.. تحركها نيران الانتقام الكامنة في قلب «قمبيز»..

ساد الصمت لحظات فعلى البعد ظهرت سحابة من الغبار، أخذت تقترب.. حتى لاحت معالم الركب.. كان مشهدًا مهيبًا، إنها «نيتيتس» المصرية جاءت منتصبة القامة واقفة على الكرسي الخلفي لعجلة حربية كبيرة تجرها ثمانية خيول من

سلالات أصيلة مشدودة إلى العربة تهز رءوسها المزينة بريش أحمر وقد بدت جدران العربة الملونة باللونين الأحمر و الأخضر، والمنقوش على جانبيها ذلك الأسد المُذهب..

رفعت رأسها في خُيلاء الفراعين كأنها تمثال من المرمر، وقد وضعت على رأسها تاجًا فارسيًا كاد يختفي ما به من ذهب من كثرة اللآليء النادرة التي تغطيه، وقد جمعت في لباسها بين الزي الفارسي الذي تعُبر عنه العباءة الملونة المزينة بالرسوم الإغريقية الذهبية، و الملابس الكتانية المصرية الرقيقة المزينة بالحرير، والوشاح المرصع بالمرمر والياقوت.. تتحرك خلفها كتيبة من الفرس ضخام الأجسام حرصت على أناقة مظهرهم، ولمعان أسلحتهم، وعلى المقعد الأمامي جلس أحد الفرسان ممسكًا بلجام الخيول وهو يقود عربتها بسوطه.

عبرت بين ألوف الأسرى الطامعين في رحمتها، وقد احمّر وجهها الأبيض النقي، ورفعت أرنبة أنفها الطويل الدقيق في شموخ وكأنها لا ترى قومها!!

حتى توقفت أمام ملكهم المُكبل «أبسماتيك الثالث» الذي أثارت الخيول الغبار حوله هو و من معه من القادة.. لم تكن ترى غيره، نظرت إليه باستنكار:

- ما أروع قيدك يا ابن «أماسيس» المغتصب.. كم يحلو لي أن أراك هكذا أيها الفرعون الهش.

ثم ازداد صوتها حدة وحنقًا:

- كم تمنيت لو كان «أماسيس» - لا رحمته الآلهة - مكانك.

نفض «أبسماتيك» بعضًا من غبار الخيل عن وجهه ورمقها بنظرة لا تخلو من سخرية وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة وقال بهدوء شديد:

- تريثي.. «نيتيتس» و لا تثيري غبار حقدك، فإن هؤلاء الأسرى أهلك و أبناء وطنك، ومنهم من تجري دماؤهم في عروقك.. إنهم مصريون مثلك

ـ عن أي دماء تتحدث.. أنسيت أن دماءنا نُزفت بقتل أبيك اللعين لأبي واغتصابه لملك الفراعين العظام، آلهة المصرين و أبناء آمون..

ازدادت نظراتها غضبًا، وازداد صوتها ارتفاعًا وأكملت تقول:..

ـ كيف يُقتل الفرعون الإله ويحكم السوقة و الرعاع.. أيحكم العبد ربه..!! ويقتله ذبحًا، أيُذبح من كانت تسجد له جباهكم طوعًا وكرهًا.؟

رفع «أبسماتيك» وجهه وثبت عينيه في عينيها و تحكم في صوته فخرج هادئًا:

ـ إن كان حقًا والدك الفرعون « إبريز » إلهًا فكيف لم يحم نفسه.. كلنا بشر يا «نيتيتس» نفنى و تتقلب بنا الحياة، فنرى نعيمها، و جحيمها.

ـ هه.. من أين أتتك الحكمة يا ابن الغادر.؟

ـ من هذا القيد ياملكة الفرس.. فمن يرتدِ الأساور الحديدية، يُدرك ما لا يدركه راكب العربة الحربية.

اشتعلت غضبًا وصرخت في وجهه:

ـ لا تحاول أن توهمني بعكس ما تشعر به.. ليس بإمكانك أن تخدعني، فما أنت إلا خائف مهزوم.

ـ مهزوم ... نعم أيتها المنتصرة على قومك، السافكة لدماء أهلك.. أما الخوف فلم أقترف بعد ذنبًا أخافه.. أما أنتِ فاحذري نفسك، فليس أشد منها خطرًا عليكِ ولا على الناس.



القائد «توزوي» والأميرة «نيتيتس»



أشاحت «نيتيتس» الغاضبة بوجهها لتنصرف، ولو أن الأمر بيدها لتركت لغضبها العنان، وأمرت بفصل رأس «أبسماتيك الثالث» عن عنقه، لكنها تنتظر ما وعد ابنها «قمبيز» ملك الفرس بأن يذل الفرعون وأسرته..

توقفت للحظة، عند التقاء عينيها بعيني القائد «توزوي» الذي كان واقفًا يتابع ما يحدث في ذهول، و كأنما أصابه الشلل، حينما سمع حديثها الخالي من الرحمة، فأحس بلهب من النار يسري في عروقه، وعندها ألقى به واقعه من زمن إلى زمن وهو يرى ما لم يكن يحلم به من تغير لتلك الأميرة المذهلة الجمال التي أحبها يومًا، وهام قلبه بقلبها عشقًا، وانتزعها القدر من بين يديه وألقاها في أحضان ملك فارس.. فقضى زهرة شبابه حزينًا على فراقها، و رفض أن يتزوج، وزج بنفسه في سلك الجندية، حتى جاء اليوم الذي أصبح قائدًا لجيش مصر، و هاهو الآن قد صار أسيرًا لديها.. فما أعجب تقلب الزمان..! وما أغرب تغير الإنسان..! كيف تُكسب الأحداث قلبًا حنونًا وعينين شفافتين كل هذا الطغيان والجبروت، ويتحول الصوت الخافت الخجول إلى صراخ قوي مدمر.. لم يعد بإمكانه أن يدرك ماذا عليه أن يفعل.. هل يرثي لها أم يرثي لشعب كامل أهلكه انتقامها، فلم يتعرض إنسان لما تعرضت له من قسوة وظلم، ولم يظلم إنسان شعبًا كما ظلمت شعبها.

لم تستطع «نيتيتس» أن تمنع رجفة سرت في جسدها، وارتعدت شفتاها صارت دقات قلبها أعلى من طرقات الطبول وهي تنظر إليه.. إلى مصير من أحبت.. تصارع الماضي كله بداخلها في ثوانٍ قليلة.. إنه لم يتغير كثيرًا رغم مرور ربع قرن من الزمان، فهاهو ضخم فتيٌ كما هو..!! واثق النظرات لامع العينين، مفتول العضلات.. حتى الشعرات البيض التي جاء بها الزمان انتظمت على جانبي رأسه فزادته وقارًا وحكمة.. شعرت بالمرارة في حلقها.. هل تحرق نيران حقدها وثورة غضبها حبيبها أيضًا، هل تفقده مرة أخرى كما فقدته من قبل.؟،

وكيف تُقنع ابنها ملك الفرس أن يعفو عن القائد الذي أهلك جنده..؟

وماذا سيظُن بها..؟

دارت بها الدنيا في لحظات نسيت فيها انتصارها، وشعرت بانهيارها وضعفها..لماذا يُخرج لها الزمان من جُبه دائمًا ما يطفيء بهجة انتصارها.؟ نهرت سائق عربتها فضرب الخيول بسياطه، أسرعت مبتعدة عن عالم الأسرى وخلفها حرسها، متجهة نحو القصر.. كمن يهرب من ماضٍ سحيق، غير شاعرة وغير حافلة بقطرات الدموع التي كانت تتسابق على وجنتيها.



جزاء الخيانة



كم من الأجساد قد داسها «قمبيز» بفرسه و هو يتنقل بين جنوده و أسراه.. الموت يُخيم على كل شيء.. زوجات الضحايا و أمهاتهم يُطلقون العويل، ..الأطفال يحتمون ببقايا أجساد ذويهم، والنيران تأكل ما تبقى من بيوتهم البسيطة.. لقد أصبحت «منف» مقبرة كبيرة.

عيناه تضربان في الآفاق ينظر إلى معابد ممفيس العظيمة التي تناطح بارتفاعها السماء الزرقاء، وعلى ساريات المعابد بدأت ترتفع رايات الفرس، وبين المسلات المنتشرة هنا وهناك.. تحرك «قمبيز» وقد رفع يديه إلى السماء، وبدأ صوته يعلوا ساخرًا:

- النيل.. المعابد.. الأهرام.. الأرض الخصبة.. الصحراء.. الوجوه السمراء.. إنها مصر.. في قبضة يدي.. يدي أنا.. ملك فارس ومصر، وهاهي إمبراطوريتي تمتد من نهر السند حتى نهر النيل وقريبًا سأمتلك العالم.. كل العالم.

تلفت حوله.. مازالت جيوشه الجرارة تسد الأفق، تعلن للعالم أن الشمس كما ستغرب عليه هنا فلابد أن تشرق وقد ازداد تغلغلاً في أعماق تلك البلاد..

بين قادة الجيش الفارسي كان مايزال يقف «خائنان» «فانيس» الإغريقي قائد جيش المرتزقة الموالي لمصر والذي كان من المفترض

أن يحمي مصر، لكنه عند تولي الفرعون «أبسماتيك الثالث» الحكم علم أن ما كان يحظى به من قوة وسطوة وحكم في عهد أبيه لن يستمر طويلاً فهذا الفرعون ليس كأبيه، إنه يحاول إعادة بناء الجيش المصري من جديد، وتقليل حجم الأجانب به، فبادره بالخيانة و باعه للفرس، بعد أن تفاوض مع رُسل قمبيز، ووشى بخطط الجيش.. كان لخيانته أكبر الأثر في وصول جيش فارس إلى هذا النصر..

وبجانبه كان يقف الخائن الأكبر «وزحاررسن» الطبيب الماهر والقائد العسكري المصري الفذ الذي نجح في أن يصبح قائدًا لأسطول مصر، لكنه أمام إغراء الذهب باع وطنه وفتح الطريق للأسطول الفارسي، فصار الغدر يطوق مصر برًا وبحرًا..

اقترب الوزير الأعظم «ميجا» من «قمبيز» على أثر إشارة من عينيه.. بدت على وجهه ابتسامته الباردة المعتادة.. حدثه هامسًا:

- أوامر مولاي المعظم.

أشار له «قمبيز» نحوهما بعينيه:

- لماذا مازالا بيننا.

تبسم «ميجا» في مكر..

- إنه المكان الوحيد الآمن لهما الآن في تلك البلاد.. ولكن هل من مصير آخر حدده مولاي لهما.

- حسنًا مازال هناك عمل عندي لـ «وزحاررسن» فمهمته لم تنتهي بعد.. أرسله على الفور مع كتيبة من جندنا، ليدلهم على أماكن اختباء الكهنة، ولا يتركهم حتى يدلونه على الأماكن التي يخفون بها القرابين والكنوز..

وفي الحال كان «وزحاررسن»، يبتعد ومعه الكتيبة رغم ضيقه بالمهمة، و شعوره

بالخزي الذي سيلحقه بعد مواجهته للكهنة في معابدهم.

وبعد أن اختفى اقترب الوزير «ميجا» من «قمبيز» وهو يحرك سيفه منتشيًا قائلا:

ـ «وفانيس» أليس له من مهمة أخيرة..؟

ـ دعه يتقدم..

و بإشارة من يد الوزير تقدم «فانيس»، وهو رغم معرفته بقيمة ما قام به من خدمات لملك الفرس، إلا أنه مازال يرتجف كلما تقدم منه، ويزاوله شعور بعدم الأمان كلما نظر في وجهه، الذي يعرف فيه كرهه، و احتقاره له.. لكنه تعجب وهو يرى الآن شبح ابتسامة لاحت على وجهه، وبرغم أنها ابتسامة ساخرة إلا أنها على الأقل ابتسامة.

التفت «قمبيز» إلى خازن المال، والمسئول عن صناديق الذهب المأخوذة من المعابد، والمحملة على قوافل من الحمير الواقفة في مؤخرة الجيش قائلاً:

ـ لقد كان «فانيس» خير معين لنا على فتح هذه البلاد، وقد جاء موعد مكافأته، غطوه بالذهب.. فإنه يستحق.

كاد قلب «فانيس» يرفرف محلقًا في الهواء من السعادة، أسرع يمد يده لقمبيز مسلمًا وهو يقول:

ـ مولاي الملك المعظم دعني أتشرف بأن أضع يدي في يدك لأقبلها، إجلالاً لعظيم ما أكرمتني، وأعاهدك أنا ومن تحت يدي من جند المرتزقة أن نظل خدمًا لك، وعونًا على عدوك.

لم يمد «قمبيز» يده، وإنما أشار له بالبقاء في مكانه قائلاً:

ـ أثبت مكانك، فمثلك لاعهد له، وحذار أن تقترب، إنحنِ و احمل هذا المعدن البراق الحقير ثمن بيعك للوطن الذي ولدت فيه وآواك، وأكرمك، ورفعك إلى

أعلى المناصب، رغم أنك لست من أبنائه.. أما يدي فلا أضعها في يد خائن.. أبدًا.

انحنى «فانيس» يجمع الذهب وهو يرتجف، وصدره يغلي بدماء الحقد، والكراهية، وقد أضمر كل شر في نفسه.. وبعد أن وضع حمولته على ظهر عربته الحربية، شيعه «قمبيز» بنظرة احتقار حارقة، بينما اقترب الوزير «ميجا» من سيده قائلاً:

- مولاي لقد أوغرت صدره، وهو رجل مكائد ليس بهين، وله كلمة، وجيش من المرتزقة، ولدوا جميعًا وسط الحروب.!!

همس «قمبيز» متهكمًا:

- جنده يبيعونه بأقل مما أخذ يا «ميجا»، أما هو فاحرص على أن يقضي ليلته في غرفة أنيقة مع أسدٍ جائع، فأنا لا أحتفظ بخائن تحت سماء أرض أملكها، وكن حذرًا فلا أريد أن يعلم «وزحاررسن» من أمره شيئًا، فمازال موعد لحاقه بصاحبه بعيدًا، فقبل أن يكون مجرد خائن حقير فإن لديه علم غزير، وخبرة أحتاج أليها الآن، أكثر مما يحتاج الأسد إلى لحمه النتن.



المعلم



توقف عن الحديث فجأة وأشار لمن حوله بالرجوع إلى الخلف وهو يلمح بعضًا من جنده يحملون هودجًا يعرف مكانة صاحبه..!!

ترجل «قمبيز» من فوق فرسه فما كان له أن يظل في شموخه وهو في حضرة معلمه وطبيب أبيه (كنترياس).

فتبسم المعلم وهو يستند على عصاه ليتمكن من النزول من هودجه قائلاً:

ـ حتى في يوم نصرك تنزل من مجدك لاستقبالي.

ـ مجد العلم، خير من مجد المُلك.

ـ قمبيز، أنت حقًا يا ولدي تستحق أن تكون ابن «قورش» الموحد والفاتح العظيم الذي صنع أعظم حضارة للفرس، وها أنت تُكمل مسيرته وتضم على حداثة سنك إلى ممالكك سيدة الممالك.. مصر.

شعر «قمبيز» بلذة النصر تسري في عروقه أما المُعلم فقد كان يعرف معنى البريق الذي اتقدت به عيناه فأكمل قائلاً:

ـ منذ صباك يا بني و أنا أدرك أن أحلامك تعلو وتشق السماء، فلم تكن يومًا من هؤلاء الذين يمر عليهم الزمان ويشيخون وهم ملتصقون بأكواخهم الدافئة، بل من النوع الذي يمتلك الإرادة الكافية لتحقيق ما يحلم به.

ـ نعم يا معلمي، ولكنها إرادة أحسنت أنت تدريبها، إنها أرادة الملوك في توحيد العالم وتجميع الشعوب تحت قيادة واحدة وراية واحدة، فالحياة تسمو وتنبت على بريق الدماء الحمراء التي تسقي السيوف الجائعة، والمجد يعشق الصدور الشامخة، ويسحق الظهور المحنية.

تبسم المعلم قائلا:

ـ أي بني أنت الآن فتحت مصر، وأضفت إلى مُلكك زهرة البلاد.. فمصر ليست كأي بلدٍ تُفتح.. إنها حضارة وعلم وتاريخ ضرب جذوره في أعماق الزمان.

اقترب قمبيز وهو يدرك تمام الإدراك خطواته القادمة وقال:

ـ أعلم جيدًا أي بلد دانت لي الآن، و ما جئت مصر لأهدم حجرًا فيها، وما تراه الآن هو ضريبة الفتح تدفعها الشعوب التي تُصر على المقاومة.

ـ من حق هذا الشعب أن تشفق عليه وتحترمه أيضًا فقد أدى ما عليه من واجب في المقاومة؛ لأن من لا يقاوم غازيًا لا يستحق الحياة بكرامة.

ـ قد يكون في الإشفاق إهانة للكرامة، ولعل في حبس المعونة أحيانًا من النبل ما ليس في المسارعة إلى بذلها.. هذا ما علمته لي يومًا.

احمر وجه المعلم حتى منابت شعره الأبيض، ولاذ بالصمت، وهو يراقب هذا الصرح الذي نجح في بنائه، وعلمه أسرار الحكم، وسُبل السيادة بعد أن ساس أخلاقه.. هذا الفتي الضخم عريض الجبهة، برونزي البشرة، وسيم الوجه، الذي تحيط به لحية سوداء كثة، وتتجلى على ملامحه أسارير القوة والعظمة، والكبرياء المتميز ببريق عينيه السوداوين، التي تندلع منهما نظرات كأنها لهب، والذي لم يبلغ العقد الثالث من عمره بعد لكنه يحمل عقلاً يؤهله لأن يكون من أعظم ملوك الأرض..

فتحرك قمبيز كمن يستعرض ما وصل إليه من قوة وسيطرة ورفع يديه متفاخرًا

بنصره.

- هكذا الملك يا مُعلمي، ولكي أحافظ عليه سأضطر دائمًا إلى السير فوق حياة أشخاص كرهتهم، وآخرين أحببتهم. وقد جئت إلى هنا لأُثبت حقي الشرعي و ميراثي لتلك البلاد فأنا صاحب هذا العرش، و مالك تلك المعابد والوريث الحقيقي لهذا النيل.. نعم ورثته عن جدي لأمي الفرعون العظيم «إبريز».

- مازالت كلمات أمك «نيتيتس» تنمو في أعماقك.

- نمو اللبلاب الذي سقاه ماء الخديعة والمكر، ولو علم أبي بما علمت من قبل لفتح مصر قبل أن أولد.

- قمبيز، كن حذرًا فالنار تحرق أيضًا من أشعلها..

هوى قمبيز بقبضته على الجدار المجاور له و التفت إلى المعلم قائلاً:

- إن ما يمزق صدري هو أن الموت قد سبقني إلى روح خصمي الفرعون الغادر «أحمس أماسيس» قبل أن تصله يداي فيكون إذلاله تاريخًا يُحكى.

جلس المُعلم (كتترياس) على صخرة قريبة، وقد أثارت كلمات قمبيز شيئًا من تاريخه مع أبيه، وتذكر يوم أن قرر «قورش» الكبير أن يُعزز الصداقة بينه وبين مصر بأن يُضيف إليها النسب فأرسل إلى الفرعون «أماسيس» يطلب منه الزواج من ابنته «نفريت»، لكن هذا الداهية خشي أن يتخذها قورش محظية لا زوجة فأمر بتزيين «نيتيتس» الأميرة الأسيرة ابنة الفرعون «إبريز» الذي اغتصب «أماسيس» منه العرش وأرسلها إلى قورش على أنها ابنته، بعد أن هددها بأن يُهلك بقية عائلتها إن افتضح الأمر.. فتزوجها ملك الفرس وكان قمبيز هو نتاج هذا الزواج..!!

إلا أنها بعد سنوات وعند تولي ابنها للعرش وجدتها فرصة لُتحطم ذلك المخادع الذي اغتصب مُلك أبيها، و أخبرت ابنها بقصتها.



أي بني أنت الآن فتحت مصر، وأضفت إلى مُلكك زهرة البلاد.. فمصر ليست كأي بلدٍ تُفتح.. إنها حضارة وعلم وتاريخ ضرب جذوره في أعماق الزمان.

لاحظ قمبيز شرود معلمه فاقترب منه قائلاً:

ـ مازال هناك مكان للانتقام فابنه الملك «أبسماتيك» الثالث، قد وقع في قبضتي، وسأختبر صبره على الذُل قبل أن أقضي عليه.

تنهد المُعلم وهو يُداعب لحيته ويستعد لاعتلاء هودجه عائدًا،.. ونظر في عيني قمبيز بقوة وقال:

ـ تذكر أن فتحك لبلاد النيل ليس دافعه الوحيد هو الانتقام، فالانتقام وسيلة وليست غاية، ولكن الهدف الأسمى هو إمبراطوريتك العظمى التي خلقت لتنمو وتسود، أما «فرعونهم ومن معه من خيرة هذا الشعب و ممن كانوا سادته فقد صمدوا و لم يتنازلوا أو يخونوا، فلا أحق من أن تعاملهم بكرامة..!! لا بذُل وإهانة.. سواء عفوت عنهم أو ألحقتهم بمن فقدوا، وتذكر جيدًا أن أباك «قورش» الكبير كان إذا فتح بلدًا، يعفو و يُكرم،.. ويولي أيضًا.. فكُن لذلك أقرب.

شعر «قمبيز» أنه مازالت أمامه جبال من علو الهمة يجب أن يرتقيها قبل أن يُصبح شبيهًا بأبيه.. ولو كان أمرًا غير هذا لأخذ بدربه وعفا..!! لكنه لا يقدر أن يتراجع الآن وصوت أمه المطالب بالانتقام مازال يطالبه بالنتائج..

المُعلم يعرف ذلك لذا قطع فترة الصمت قائلاً:

ـ إذًا احرص على أن يكون الماضي منصة للوثب ونيل ما تهوى بدلاً من أن يكون أرجوحة تتلاعب بك.

ـ ماذا تقصد.

ـ ذَكِّر الشعب المصري بأنه ميراثك الشرعي وارتدِ زي الفراعين، و ابنِ ما تهدم من مساكن ومعابد وتقرب إلى آلهتهم التي لا تؤمن بها، فأنا أعلم أن «قورش» قد أخبرك كثيرًا أنه ليست نيراننا، ولا آلهتنا الفارسية ولا المصرية، ولا حتى اليونانية هى التي تتحكم في مصائر العالم وإنما تحكمه قوة واحدة لا تتجزأ، هي التي توجه

بصائر الأمم والمخلوقات، قوة خالق واحد يتصرف في أقدارنا كيف يشاء..

- ما دعا إليه أحرقته نيران قومنا بعده.

- ربما يأتي يوم تتذكر فيه مقاله، وتعيد ما تهدم من بنائه، أنت بحاجة الآن إلى فترة من التقرب لهذا الشعب، والتفاهم معه، وتذكر أنه كم من أُسرٍ تقلبت وحكمت هذا البلد فلتُكمل مسيرتهم ولا تهمل مسيرتك.



السهم المسموم



اقترب قمبيز من ساحة منف وأشار إلى جنوده لينفذوا ما أمر به، فبدأ ألفان من الأسرى على رأسهم «ابن» الفرعون«أبسماتيك الثالث» بالتحرك.. وجر الجنود بنات الأمراء والقادة وهن يرتدين ملابس الإماء والجواري، ومعهن الجِرار لملئها من ماء النيل، وفي مقدمتهن «ابنة» أبسماتيك.. بينما ظل «قمبيز» بعيدًا ينتظر نتائج ما خطط له، وقد دَس عيونه ليخبروه بأدق التفاصيل.. التفت إلى وزيره الأكبر «ميجا» قائلاً:

- هل أعددت كل شيء..؟

- انتظر إشارة مولاي.

- فلتكن مذبحة جديدة على مرأى من أعين بقية الشعب فيملأ الذعر .

النفوس ويخشون سطوتي، وتخبو نيران الثورة في نفوسهم حتى قبل أن تبدأ.

رفع الوزيزر«ميجا» صوته في فخر:

- ومن يمكنه أن تحدثه نفسه بالثورة وسيوف جنودك على الرقاب، وهيبتك قد خلعت القلوب.

- إنما أردت أن تكون المذبحة الأخيرة، التي يظل أثرها في القلوب، بعدها سيكون همنا وشغلنا الشاغل هو أن ينمو خير تلك

البلاد، ونجني ثمار الفتح، ويعم الأمن قبل أن ننتقل لفتح جديد.

في مكمنها كانت «داشيتا» مازالت متربصة، وقد غمست نصال سهامها في سُم الأفاعي،.. ووقفت تنتظر اللحظة الحاسمة.

«حاروز» لا يستطيع إلا أن يكون قريبًا منها.. رغم رجائها له بالابتعاد.. هذه المرة الفرار لن يكون سهلاً.. فأضواء المشاعل و القناديل تجعل الليل نهارًا..

أمسكت القوس بقوة، وشدت الوتر بعدما ثبتت السهم.. رفرفر قلب «حاروز» وزادت نبضاته فصارت كطرقات الطبول فرغم دقتها في التصويب، وقوة رميها، إلا أن المسافة بعيدة جدًا و الجنود في كل مكان والخطر محدق.. أسرع يزحف نحوها لكي لا يلحظه أحد، وعلى الفور زجرته بنظرة غاضبة، لكنه لم يكن يأبه ساعتها بعصيانها فقال مسرعًا:

ـ ليس الآن يا «داشيتا» اصبري فلن يصله سهمك من تلك المسافة سيتحول إلى سهم طائش يأخذ معه حياتك، فلنؤجل صيدنا إلى أن تحين فرصة أقل خطرًا.

قالت دون أن يرف لها طرف أو تتبدل نبرة صوتها:

ـ ليس هناك فرصة أهم من تلك، يجب أن أصيبه قبل أن يُنهي حياة الفرعون، إنها اللحظة الحاسمة..

ـ فلنتريث قليلاً، فمن الحكمة أن ننتظر فرصة أقل خطرًا..، أنا من دربتك يا «داشيتيا» وأعلم أن نجاح إصابة قمبيز من هنا ضرب من المستحيل..

ـ لست بحاجة إلى إصابة بالغة، يكفي أن يجرحه السهم ليقتله مابه من سم الكبرى الفتاك.

ـ انتظري رجاءًا.. لو طاش السهم فقد تذهب روحك أنتِ بلا ثمن.

ـ كل الذين أحببتهم راحوا مثل الحلم.. راحوا بلا ثمن.

ـ مازال لدينا الوقت.. أخشى على حياتك.

ـ لا تقلق عليَّ يا «حاروز» فقد أدركت أخيرًا أن الحياة مجرد حلم..

شدت قوسها بكل ما أوتيت من قوة وهي تطلق كلمتها الأخيرة:

ـ والحلم يا رفيقي ليس أكثر من حلم.

عيونهما متعلقة بالسهم المسموم المندفع بلا رحمة يحمل سُمه نحو «قمبيز» الجالس في هدوء ينتظر تنفيذ أوامره.

وفي اللحظة الحاسمة انحنى «قمبيز» يسارًا ليلتقط كأس شرابه فمزق السهم حاشية كرسيه، و ارتجت الساحة بالصيحات واتجهت كل العيون نحو مصدر السهم وشرعت الأيادي الرماح، والسيوف، وقفز الفرسان على الخيول..

رأى «حاروز» الرعب و الحيرى في عيون «داشيتا» فالمسافة الفاصلة هذه المرة لا تكفي للفرار وها هو الموت قد أصبح محققًا، وفي لحظات كان قد خطف قوسها وكنانة سهامها، ودفعها بقوة من خلف الشجرة التي كانت تخبئهما فسقطت في ماء النهر المظلم فلم ترها عيونهم، و أسرع في شجاعة نادرة نحو جيش «قمبيز» وهو يطلق سهامه القاتلة، التي لا تخطيء هدفها، ولما نفذت مزقهم سيفه..لم يفكر لحظة واحدة في ما هو مقدم عليه من خطر، ولم ينظر إلى عددهم، كان يضرب، ويضرب، كأنه الريح المرسلة، و كل أمله أن يعطيها الوقت للهروب.

أخيرًا طوقه الجند..

في لحظات وقبل أن تُصيبه رماحهم بضربات قاتله جاءتهم الأوامر من قمبيز بأنه يريده حيًا..!!

مر الوقت سريعًا و«داشيتا» مازالت تسبح وتختفي عن أعين الجند وسهامهم المرعبة التي اندفعت نحو الماء كالشلال، ومشاعلهم التي بددت كل ظلام، ظلت تحاول الاختباء بين الأعشاب و خلف نباتات البردي، حتى وصلت إلى الضفة

الأخرى ، وهي ترى الخيول المسرعة التي تحاول تمشيط الضفة بحثًا عنها، وفي اللحظة المناسبة انطلقت تعدو بين التلال ووسط الأشجار لا تلوي على شيء وظلت تتعثر في عدوها بين النباتات الشوكية وتسقط، وتنهض، وتجري حينا وتتوقف حينًا لتلتقط أنفاسها وتلتفت وراءها.. بينما قطرات العرق تتساقط مالحة على جبينها لكنها لم تحفل بها أو بالدماء التي تسيل من يديها وساقيها.. لا تعرف سوى أن تُسرع نحو أبعد مكان تشعر فيه بالأمان معتمدة على غريزتها.. ولم تعد تشعر بمزيد من الخوف بعد أن بلغ خوفها مداه..

كان ظلام الليل يتلاشى تدريجيًا، والقمر يتحول إلى اللون الأبيض الباهت الشفاف.. و عند وصول أول بوادر النهار و احمرار الشفق الذي يُنذر بظهور الشمس الساطعة الكاشفة لكل خباء..

تنهدت أخيرًا في ارتياح رغم اختفاء الظلام الذي كان يأويها فلم تكن ترى خلفها أثرا للجنود، لقد استطاعت أن تضللهم، لكنها خشيت أن يُفاجئوها من اتجاه آخر فأخذت تجري بقوة متجددة وفي أماكن متعرجة ومنحنيات خطرة، حتى شعرت بدفء الشمس يغمرها، ورأت من بعيد البيوت الطينية التي تُظللها النخيل، فجمعت ما تبقى من قوتها و أخذت تجر ساقيها لاهثة، تمددت أخيرًا على بساط من العشب الأخضر، واتخذت من الأرض الطيبة مرقدًا، وراحت تتلمس غفوة تحت ظلال أشجار السنط والجميز الضخمة المعمرة، وارتفعت الشمس وهي هامدة الجسد، متعبة الأعضاء.

لقد كانت ليلة عصيبة.. لم يستطع النوم الاقتراب من جفنيها، وقد أصبحت الأحداث الماضية تتحرك أمامها كالأشباح، شعرت للحظات بوحدتها وضعفها، وقلة حيلتها.. تكورت في مكانها، أخذت تنتحب بلا صوت.. دموعها تنحدر إلى الداخل.. وقد شعرت بأنها فقدت كل ما لديها.. فقدت قوسها وسهامها.. و«حاروز»..

نعم حتى «حاروز» قد فقدته.. فقدت من بقي أمانًا لها في هذه الدنيا.. لم تكن تشعر بقدره من قبل كما تشعر به الآن.

لم تستطع الابتعاد من الماء حتى تأكدت أنه لم يُقتل، لماذا أصر «قمبيز» أن يمنحه ذل الأسر.؟

أخذت تحدث نفسها في جنون:

ـ لماذا ضحى بنفسه من أجلي..؟ إنه أسرع مني و أقوى أيضًا.. و لديه فرصة كبيرة للهرب؟ لكنه فعل كل ما يمكن لبشر أن يفعله لكي يعطيني الفرصة للنجاة..

«يا لهذه الأيام العصيبة..! لقد أصبحت تفقد كل من تحب و ما تحب .. ذهبت الأيام الجميلة، واغتيلت الأحلام.. كل شيء أصبح خيالات وماضيًا.. لم تعد تمتلك إلا ذاكرتها» تنهدت في يأس:

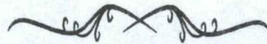
ـ ذاكرتي هي الفردوس الذي لا يستطيع أحد أن يطردني منه .

وهي أيضًا الجحيم الذي أعجز عن الهرب منه.

لا تستطيع حتى الفرار أو محاولة النسيان فلاشيء يُرسخ الأشياء في الذاكرة ويثبتها مثل الرغبة في نسيانها..

لا لن تهزمها مشاعرها، فكل شيء إلى فناء وهاهي تتجرع الفراق قطرة قطرة حتى كادت أن تألفه، كل شيء متربص بها..

لكنها قررت ألا تتراجع..



دموع الملوك



دوى صوته الساخر في القاعة وهو يقلب «حاروز».. بنظراته ذلك الفتى الأسمر الفتاك، ذو العضلات البارزة المكتنزة،.. حقًا إنه مقاتل بارع يساوي عشرة رجال، لكنه رغم كل ما أصابه من عقاب مازال مصرًا على الصمت.. هتف قائلاً:

ـ حسنًا عما قريب سأعرف من أنت.؟ ستأتي إلي راكعًا لتخبرني بكل شيء.

فمثلك لايُستهان به، فقد كنت تقاتل قتال من يرمي نفسه في الموت ليحمي غيره، لقد اندفعت في جنون نحو الجند.. لا نحو سيدهم، بعد أن طاش سهمك.. أو سهم من كنت تحميه.. لكني لن أمنحك راحة الموت حتى أعرف من وراءك.. خذوه.

أخذ الجنود « حاروز» إلى سجن قلعة منف، و تركوا «قمبيز» ينتظر أن يخبره رجاله برد فعل الفرعون، ومدى صموده لما أعده له من ذل، فقد أعد كل شيء، ولابد من انتظار النتائج..

تنهد قمبيز في صمت ساخرًا من نفسه:

ـ وهل بقي للملوك من فضيلة سوى فضيلة الصبر و الانتظار.

***

مر موكب السقُاة هكذا كانت بنات الأمراء والسادة وهن يرتدين ملابس الإماء والجواري ويحملن جرار الماء لسقاية جنود قمبيز أمام أعين آبائهن الأسرى وهن يبكين.. ويبكي آباؤهن لرؤيتهن ، والعيون تراقب الفرعون.

نظر «أبسماتيك الثالث» إلى ابنته بينهن.. وصل الجُرح سريعًا إلى أعماقه أصبح كالوشم الذي لا تمحوه الأيام.. تحجرت عيناه المثبتتان على زهرة قلبه، على من كانت في خِدرها و تاجها متوردة، تروح وتغدو بين قصوره في أثوابها الحريرية .. تهفوا إلى قِطافها قلوب المحبين.. دموعها المنحدرة في صمت كاللآليء تكوي قلبه قبل أن تصل إلى خديها.. لم تولول كغيرها، ولم تبكِ لذُلها لكنها بكت حنينًا إليه حين رأته..، وشفقة عليه من أثر القيود في يديه.

تمالك نفسه ولم يسمح لدموعه بهزيمته.. ونظر إلى الأرض ليختم بصمته المشهد الرهيب..

مر الموكب الحزين.. وتبعه إعلان من سيُنفذ فيهم حكم الإعدام، فبرقت عيناه، ورفع وجهه في ذعر وهو يرى أمامه ألفين من الأسرى على رأسهم ابنه.. يُسحبون لتنفيذ حكم الإعدام فيهم.. مروا بالقرب منه في تثاقل، والعيون ترصده.. لعل الفرعون ينهار وهو يرى وحيده الذي ينبض بالشباب والجمال والقوة يرى من كان يأمل أن يخلفه على تلك البلاد يُقاد للموت.. لكنه أدرك الآن أن قمبيز يُريد إكمال ذلك.. وسمع همس قائده «توزي» الذي كان يحاول تحمل الألم مثله، وهو يرى إخوته و أبناء عمومته بينهم و يقول:

- مرحى للموت، الشريف أنظر كم هم رجال أقوياء رؤوسهم شامخة لا يهابون ما هم قادمون عليه، إنهم زهرة شباب مصر ورموز كبريائها.. ليتنا معهم ننال موت الرجال مثلهم فنستريح من أعباء ما هو قادم.

فأحنى «أبسماتيك» وجهه ولاذ بالصمت.

لكنه بعد مرور الموكب نظر فرأى الجنود المتمتعين بخيرات البلاد.. هاله أن يرى من الضعفاء من يتسولون من الجند.. حاول أن يتماسك، لكن تماسكه انهار فجأة حين رأى صديقه الشيخ الطيب «حور مرتف» و الذي كان من أنعم الناس و أغناهم وأعطفهم على الفقراء.. رآه وهو جريح جائع يجرجر قدميه ويتسول لقمة يأكلها من جنود الفرس، و لا يجد سوى السب و الإهانة.. ويصرخ ويبكي مشيرًا إليه، ومذكرًا له بأيام العزة، ومناديًا من كانوا أصدقاءه...

انهار «أبسماتيك الثالث»، ونزفت دموع الملوك.!!

وصل كل شيء إلى قمبيز فزاد عجبه، وعلى الفور أمر بإحضاره إليه..

مضى « الفرعون» يجر قيوده وخلفه الحرس في ذلك الطريق المرصوف بالصخور الجيرية و الذي يمتد لمساحات شاسعة صاعدًا إلى قصره الأبيض الشامخ، وعيناه تدوران في أرجاء حديقته المترامية الأطراف المشبعة برائحة البنفسج والياسمين التي تحيطها الأسوار.. طريق كان يملكه و لطالما سار فيه وحديقة قضى طفولته في أرجائها.. رمق بسخرية عند اقترابه من القصر تمثالين مهيبين له يمثلانه بأنفه الشامخ وهو يُمسك العصا الذهبية المعقوفة ويرتدي تاجه الفرعوني وضعوا التمثالين حديثًا بعد أن تولى الحكم بثلاثة شهور، وأمامهما كانت ترتفع مسلتان منقوش عليهما إنجازات أسرته الأسرة السادسة والعشرين... ظهرت الجدران الملونة والمداخل الواسعة.. وقد ارتدى الحرس زيًا فارسيًا أنيقًا ووقفت الجواري مصطفات بجانب الأعمدة وقد وضعن البخور على الفحم المتوهج في المباخر البرونزية.. فتصاعدت الرائحة الذكية إلى أنفه شعر بالانتشاء رغم كل شيء.. لحظات ويُصبح أمام عرشه.. الذي سكنته غربان فارس..

وعند العرش توقف به حارسه..

أعطاه قمبيز ظهره وادعى انشغاله، بقراءة برديات وجدها حوله، وهو جالس

على الكرسي المهيب الذي تتشكل قوائمه على هيئة أقدام أسد ويرتفع مسنده المزدان بنقوش ذهبية مُطعمة بأندر الجواهر، مُستندًا على الوسائد ذات الورود الزرقاء الزاهية وحوله أربعة رجال أشداء يلوحون عليه بالمراوح الضخمة المصنوعة من الريش، و عن يمينه مجموعة من القادة المُحملين بأثقل الأوسمة الذهبية وأفخرها، تلمع أسلحتهم التي ارتوت من دماء المصريين..

ببرود أشار ملك الفرس إلى حاجبه.. اقترب الحاجب ووقف يسأل الفرعون الأسير:

- إن سيدك «قمبيز» يسأل لماذا عندما رأيت ابنتك قد ذُلت و ابنك أرسل إلى الإعدام لم تبكِ أو تتوجع، ولكنك كنت مهمومًا وانهمرت في البكاء من أجل شحاذ ليس قريبًا لك..؟

رفع «أبسماتيك الثالث» رأسه موجهًا حديثه إلى «قمبيز» الذي كان يدعي الانشغال وقال بصوتٍ قوي:

- يابن «قورش» إن مصائب أسرتي أكبر من أن أعبر عنها بالبكاء والعويل، فما أقسى أن تلتقي عيونك بعيني ابنتك وتجدها تبكي لأجلك، وأن يُعدم من كان ولي عهدك.. ولكنها ثمرات الهزيمة يقطفها المنتصر من قلب المهزوم.

دفن أبسماتيك وجهه بين كفيه في محاولة للتماسك و هو يقول:

- ولكن أحزان صديقي كانت جديرة بدموعي، فهو الذي قد هوى من قمة الثراء والسعادة والنعيم و أصبح يتكفف الناس و لا يجد اللقمة وهو على شفا الهِرم.. ألا تمتليء عيناي رحمة بعزيز أصابه الذل.

لم يتمالك قمبيز نفسه واوغرورقت عيناه بالدموع تأثرًا، بذل جهدًا خارقًا كي لا يجهش بالبكاء.. أحنى رأسه وقد أدرك نُبل هذا الرجل الذي أمامه، واختلافه عن أبيه «أماسيس» الغادر.. وتذكر ساعتها كلمات معلمه «كتترياس» عن أبيه «قورش»

- (كان أبوك يعفو، و يُكرم،...)..

تماسك ثم رفع رأسه محدثًا الفرعون الأسير:

- لا تجزع بعد اليوم حين تجدني محتلاً بيتك متربعًا على عرشك كأثقل صخرة في الكون.. ولكن يكفيك أن تتذكر أنني عفوت يومًا عنك وعن كل أسراي و سأعفو عن ابنتك و أردها إليك.

رفرفت أطياف الفرحة على قلب «أبسماتيك» الذي لم يكن ليُصدق ما حدث لو لا أنه عاشه بنفسه..

وتذكر «قمبيز» بقية كلام معلمه « (ويولي أيضًا.. فكُن لذلك أقرب) فتبسم له قائلاً:

- سأبقيك في أحد القصور الملكية، وقد أحتاج إلى مشورتك يومًا.

وهنا نظر «أبسماتيك الثالث» في رجاء، وقد تملكته لحظة ضعفٍ أبوية، بينما امتلأت نفسه إعجابًا بشهامة من هزمه وهتف طامعًا:..

- وابني.. رجاءًا أيها الملك إنهم يعدمونه الآن.

وعلى الفور أصدر قمبيز أمره لحرسه أن يوقفوا عملية الإعدام، ولكن كان قد سبق السيف العذل.



«توزوي»



إنه العفو الذي ناله «أبسماتيك الثالث» وأسرته، و معهم الكثير من حاشيته وقادة جيشه، وشمل أيضًا «توزوي» الشجاع قائد الجيش المصري.. عفو ملك لم يستطع أن يُخفي عظيم تأثره بنُبل من هزمه..

جراحه أعمق من أن تندمل بسهولة، لم تكن تلك هي جراح المعركة، إنها جراح جديدة أكثر عمقًا، ليس في جسده فقط، بل في أعماق نفسه، فبرغم أن قادة جيش الفرس يعرفون أنه تم العفو عنه، إلا أنهم لا يحتملون أن يزول القيد عن الأسد الذي أهلك منهم الكثير فآثروا أن ينتقموا منه، قبل نزع القيد عنه، كما يحاول أن يبصق خنزير على أسد..!! وهو مطمئن أنه محجوز في قفص.

هكذا ظل أيامًا طويلة راقدًا يعاني من تلك الجراح وعندما تماثل للشفاء ارتدى ملابسه وهو يقول لنفسه:

ـ لا لن أدع الأيام تمر أمام عيني دون مقاومة.. مازال في هذا الشعب روحٌ حرة لا يُخمدها مغتصب، و أنا أعرف كيف أشعل لهيبها.

خرج «توزوي» من بيته إلى قلب المدينة، يرى أحوال أهلها، وما وصلت إليه البلاد، تحت حكم الفرس، الذين انتشروا، في الطرقات، يحملون أسلحتهم النحاسية البراقة، ويراقبون حركة العمال.. تعجب لأنه يراهم لا يعاملون، الناس بالشدة،

ويتحركون في الأسواق كأنهم من أهلها.!! لكنه علم أن هذه هي أوامر «قمبيز» و أنه يعاقب بشدة كل من قام بالتعدي على المصريين ، وقد اكتفى بوضع نظام للضرائب، يقوم الجنود بجبايته من التجار والحرفيين، ويقوم الفلاحون بدفعه من محصولاتهم.. تقدم «توزوي» نحو بيوت البسطاء، وسار بين شوارعها الضيقة، حيث تقترب أسقف المنازل من الرؤوس، وبدأ يسير تحت مباني قديمة، ومتهالكة، متصلة ببعضها كمن يسير في سرداب مظلم، وهو يمر بأحياء العمال المكدسة بالأكواخ الصغيرة المزدحمة بالمارين حتى أنه من الصعب على المار أن يشق لنفسه طريقًا، وهو يشعر بالحرارة المرتفعة، و الروائح المنبعثة من البيوت، وبعد أن قطع شوطًا كبيرًا انتهى به المسير إلى ميدان فسيح، حيث سوق من أسواق مدينة «منفيس»، الحركة دائبة في السوق، والحوانيت عبارة عن خيام أو مظلات متوسطة الاتساع، وقد وضعت البضائع في الداخل والخارج بينما يجلس أصحاب الحوانيت القرفصاء وهم يرفعون أصواتهم العالية ينادون على بضائعهم، وازدحم الناس، كان بهم الكثير من الفينيقيين، والإغريق، نساء ورجال، من جميع الطبقات والأجناس يذهبون ويجيئون، حتى الأسر الفارسية امتلئت بهم الطرقات لقد بدؤا يستوطنون مصر، ويتعايشون فيها، ويتعاملون مع أهلها، يقيمون لهم البيوت، شعر « توزوي» بالغضب، هل نجح، «قمبيز» في إقناع الشعب بأنه فرعون عاد له ملكه.. لوهلة شعر بصعوبة ماهو مقدم عليه.. كانت القصور الملكية بحدائقها الواسعة قريبة، من مكان الأسواق، وبنايات البسطاء، لذلك أول ما فعله زيارته «لأبسماتيك الثالث» في القصر الذي أودعه فيه ملك االفرس، مع علمه بما يحيطه من عيون جنود الفرس ..

استقبله «أبسماتيك» فرحًا، كان هذه المرة يتحرك كالبسطاء، وقد تخفف من الكثير من قيود السلطة والحكم، لم يعد يعتبر نفسه فرعونًا، سار معه في حديقة القصر.. وجلس بجواره على أريكة واسعة.. رانت بينهما فترة من الصمت، قطعها «ابسماتيك الثالث» بقوله:

- تأخرت عليَّ كثيرًا يا «توزوي».

- جراح الجسد تأخرت في الالتآم يا مولاي.

- وجراح النفس..؟

- لايشفيها إلا الثأر.

- منذ عهد بعيد ونحن لا نفترق، كنت دائمًا الصديق الصدوق، و الأخ المخلص، كم شعرت في الأيام الماضية بحاجتي إلى أن أنظر إلى نفسي في مرآتك الصادقة.، لم أعد أعرف..!! هل كان من الشرف والكرامة أن أقبل عفو « قمبيز» عني..؟ أم أن هذا نوع أكبر من ذل المنتصر لرمز الرموز في بلدٍ فتحه، أخبرني هل كان الأجدر بالربان أن يغَرق مع السفينة.

- ربما يكون ذلك، وربما يكون الإله قد ادخرك لأمرٍ أعظم، فقد وقعت الواقعة بالفعل، وليس لهذا الشعب من منقذٍ سوى سيده، وكل من يحيا على تلك الأرض الطيبة يعرف ذلك وينتظره.

سار معه « توزوي» داخل الحديقة، وبعد أن تواروا عن العيون همس له « توزوي» وقد عاوده بريق عينيه القديم:

- مصر مازالت بحاجة إلى ملكها.. فهل أنت مستعد.؟

فوقعت هذه الكلمات من نفس «أبسماتيك» أبلغ موقع، وشرد فكره هنيهة ثم انتبه يقول:

- وكيف لا أكون كذلك، وأنا أرى ما لحق بشعبي.؟!

- إني مستطيع أن أنصرك وأن يعود إليك ملكك فتنهض دولتك، وتطرد الغزاة.

أرهف «أبسماتيك» سمعه لكلام «توزوي» وقد شعر بالطمأنينة و الارتياح ونظر

سإليه قائلا:

- وكيف السبيل إلى ذلك وقد تفرق الجمع.؟!

- الشعب يغلي صامتًا يا مولاي، فجنود الفرس يتجبرون كل يوم وينهبون خيرات مصر.. والشعب لا يمكنه أن يرضى بمحتل مهما حاول ملكهم أن يتودد له.! فلماذا لا نُلهب الثورات ضد «قمبيز».؟!

- الثورات..!!

- نعم يا مولاي و أنا سأجمع من فر من الجند إلى الواحات، وأدربهم في أنفاق المعابد الآمنة، كل ما نحتاجه هو بعض الوقت.. ولن ندعه يعيش في بلادنا بسلام.. بل سيأتي اليوم الذي يندم فيه على مغامرته.. ثق بأنني قادر على إبلاغك ذروة مجدك القديم.. فكل مصري لن يقبل بغيرك يا فرعون حاكمًا عليه.

- حسنًا فلنبدأ الأمر سرًا حتى نجمع أعواننا ونوحد الصفوف، ولا تفكر فيما قد يحتاجه هذا الأمر من مال، فبعض خزائن ذهب «أماسيس» في سراديب لا تستطيع أيادي « قمبيز» الوصول إليها.



أحلام في السجن



مرت شهور و«حاروز» بين جدران السجن يلاقي صنوف العذاب، لم ينطق بكلمة عن المؤامرة.. عن شركائه.. عنها..

حتى نسي «قمبيز» أمره وانشغل بتوطيد الحكم، وبناء ما تهدم.. والتقرب لآلهة المصرين..!!، ولو أدرك ملك الفرس أن هذا الأسير الأسمر الذي بين يديه هو الابن الأصغر لملك بلاد كوش وإثيوبيا «نستاسن» لتغيرت عنده الكثير من الأمور.

لم يبق لـ«حاروز» سواها تؤنس ليالي وحدته، صوتها الليلي الهامس يأتيه كما كان يأتيه دائمًا.. مشحونًا بحنانها ليُنير ظُلمة لياليه القاسية، و تتفجر القوة من جديد في جسده المُعذب المحموم، الذي لا يسمحون له بالموت.. فيُعاني سكرات الحياة..!

يرى طيفها، فيجتاحه طوفان من الفرح، وارتعاشات اللهفة، يهمس لها شوقًا، وهو يُدرك أنه يعيش حُلمًا، فيتجرأ أن يحادثها بما لم يكن يجرؤ على نطقه في واقع أيام سعادته بصحبتها.. تداعبه طفولتهما معًا، فينطلق معها قلبه مرحًا في الأدغال..، يتوغلان في غاباتها المسكونة بأعمق الأسرار.. يستمع إلى ضحكاتها البريئة، وصوت غنائها الذي يولد منه الفرح، وترفرف حوله الفراشات البرية والطيور الملونة، وينمو لأجله العشب في الجبال، وتتراقص، له صفحة النيل طربًا..، وتكبر طفولتهما فجأة، ويكبر معها حلمه

بها، وتبتعد بالتدريج.. يتمسك بحلمه.. يصرخ:

لا تذهبي «داشيتا» مُدي جذورك إلى لحظتي، فمازال نبضك ضربات قلبي.. مازال الحلم من حقي..

لكن الفراق واقف بالباب.. هاهو «سكنن رع» يأتي من أعالي النيل، إلى جنوبنا يأخذها ويمضي إلى بيته الآمن ليحلما معًا بالحياة والأطفال..

هل كان عليها أن تتزوج أحد أبناء العائلة.. أم أن «سكنن راع» هو من اختاره قلبها.. فعليه هو أن يبتعد.؟!

يتحول الحلم إلى كابوس فتمتلك جسده رعشة خفيفة، ويبدأ الهذيان.. يتحول الهذيان إلى حرب دامية.. يُسيطر «قمبيز» على دفة الحلم.. يتحول «سكنن رع» إلى بطل، تتفجر دماؤه.. يختفي في قبر.. تعود «داشيتا» إلى عالمه لكن غناءها يتوقف.. وبسمتها تختفي.. يصمت ولا يرى سوى نظرات الانتقام.. لا يملك إلا أن يكون ظلها الذي لا يفارقها خشية عليها.

مازال «حاروز» غارقًا في أحلامه« وقد تملكته الحمى، من آثار جراحه المُثخنة.. مازال يُناديها في أحلامه يصرخ: «داشيتا» تعالي إليَّ.. كوني جناحي لأطير من جديد.. داشيتا.. داشيتا.. أين أنتِ؟ كم أشتاق إليكِ..

- أنا هنا.. «حاروز» أفق.. رجاءًا فليس أمامنا سوى لحظات.

يأتيه صوتها دافئًا..هل هو من أعماق الحلم..؟ أم أنه حقيقة تروي ظمأ نفسه المشتاقة.. يردد الصوت... تتبعه اهتزازات من يديها الحانيتين..

- استيقظ.. أفق.. لم يعد أمامنا وقت.. أسرع قبل أن ينكشف أمرنا، وأصبح سجينة معك.

يفتح عينيه بصعوبة.. إنها هي.. «داشيتا» كيف هذا.. هل أنبت الحلم حقيقة..

هل..هل..

.. يأتي صوت القائد« توزوي» غليظًا فيُفيق ما تبقى لديه من أحلام:

- اتركيه لي يا «داشيتا».. يبدو أنني سأضطر إلى حمله..

ينتفض «حاروز» واقفًا كالمسحور.. يرى حرس السجن.. ضحايا حوله..

- ماذا يحدث..! كيف أتيتم..؟

تبسم «توزي»:

- حسنًا هكذا أفضل فحملُك كان سيُصعب علينا الفرار.. أسرعوا..



واحة الموت



مع أول أضواء الفجر كانت هناك عربة حربية تجرها الخيول تُسرع وسط صحراء مترامية الأطراف، نحو التل الغربي، بالقرب من قرية البناءين، حيث بُنيت مساكن العمال من الحجارة الجيرية، و اصطفت البيوت البسيطة المبنية من الطوب اللبِن حولها في نظام بدائي بسيط .. حرص «توزوي» على أن يتخفى هو ومن معه حتى لا تراهم العيون، فهو يعرف أين تقع نقاط المراقبة التي يحتلها جنود «قمبيز» المسئولون عن أمن القرية..

في الطريق قصت «داشيتا» على «حاروز» ما حدث للفرعون «أبسماتيك الثالث» و ما كان من عفو «قمبيز» عنه، وإبقائه مُعززًا مُكرمًا في أحد قصوره هو ومن تبقى من عائلته، و أنه هو الذي سهل لها الوصول إلى زنزانته بعد أن طلبت منه المعاونة في الخفاء.. فاستشار في الأمر «توزوي» صديقه الذي كان قائدًا لجيشه و الذي يعرف الدهاليز و الأنفاق السرية وكل الطرق المؤدية إلى سجن قلعة منف الحصين.. وكيف أنه أعطاها بعض الذهب الذي سهل لها الكثير من الأمور.

في واحة قريبة توقفوا أخيرًا بالعربة ليريحوا الخيل.. تنهد «حاروز» مرتاحًا وقد شعر بأن الحياة قد عادت إلى هدوئها المعتاد و استقرارها وأخذ يشرب بعض الماء البارد من النبع، ويغسل يديه

وينظف الجراح التي تلوثت.. لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يمنع عينيه من الشوق إلى رؤيتها، تابعها.. لاحظته.. ابتسمت له فأحنى وجهه خجلاً.. مازال لا يقدر على البوح رغم أنه قال.. وسمعت.. وهو في غيبوبته الحالمة.!!

أسند القائد «توزوي» ظهره إلى جدار من الطوب اللبن.. و قد وضع سلاحه بين قدميه حذرًا.. حاول أن يغفل قليلاً دون جدوى.. كان طيف «نيتيتس» يداعب خياله.. أراد جاهدًا أن يحَول اتجاه تفكيره بعيدًا عنها، لكن قلبه الذي صحا فيه الحب القديم كان أقوى منه.

تذكر أيامه معها، التفاف أصابعهما وهو يضم يدها الرقيقة إلى قبضته القوية.. يسير معها خفية بين المروج، والأزهار.. يراقب نظرات عينيها الناعستين الحالمتين، رنة ضحكاتها و شفتيها الرقيقتين كأنهما حبتان من الكرز، كانت أروع فتاة في الكون.. كم عاشا أحلامهما معًا، وكم حالت الأيام بينهما وبين هذا الحب الخالد.. لم يجرؤ أبوه على خطبتها من الفرعون «إبريز» رغم ما كان يتمتع به من مكانة وقوة بين وزرائه.. تحداه وأصر على أن يخطبها بنفسه، لكن القدر سبقه، حين قُتل الفرعون وغُدر به، و انتقل الحكم إلى «أماسيس».. وقتل وسجن كل من حاول المقاومة من أسرتها، أما هي فقد احتفظ بها الفرعون بين جواريه، لتُعلم ابنته« نفريت» آداب بنات الملوك..

كانت أحزانها عميقة، وقلبها كسير، وما أكثر العيون التي كانت حولها، و جند الفرعون يمنعانه من الاقتراب من قصر «أماسيس» رغم محاولاته العديدة.. إلى أن أرسلها الفرعون بخديعته إلى ملك فارس،.. ولم يرها بعد ذلك، ولم يجرؤ أن يتزوج غيرها..

ظلت في أحلامه تسكن قلبه، وتنمو في وجدانه..، ولم يجد أمامه غير الجندية والمعارك القاسية مكانا يطفيء فيه لهب قلبه الدامي..

أفاق « توزوي» من أحلامه الوردية على واقعه المر.. هل عادت حقًا.. أم أن من عادت اليوم امرأة أخرى.. لا تعرف غير جبروت الانتقام.. حقًا إنها ظُلمت، ولكن ليس من حقها أن تُعاقب شعبًا بأكمله، وتوغر صدر ابنها بعد أن صار ملكًا يحكم جيشًا جرارًا من الفرس، والبرابرة، و الهمج ليقضوا على حياة وحضارة شعبها.

***

انتبهت «داشيتا» على خطوات جياد تقترب.. فأمسكت قوسها بحركة لا إرادية..

و على الفور قفز « توزوي» و أمسك بلجام الخيول التي تجر العربة و قد أدرك بخبرته الحربية ما يحدث.. صرخ فيهم محذرًا:..

- إنه كمين..

كان جنود الفُرس يحيطون الواحة من كل جانب، بعد أن اكتشفوا اختفاء السجين، و مقتل الحرس، فاتخذ بعضهم طريقًا مختصرًا إلى تلك الواحة، وصدرت لهم الأوامر بأن تطوق كل القوات، مدينة البنائين، وقاموا بتفتيش كل بيت إلى أن اكتشفوا مكانهم في الواحة..

تبسم «توزوي» «لداشيتا» مطمئنًا ودفع لجام الخيول إلى «حاروز» وهو يقبض على سيفه بقوة و يُحكم قبضته على بلطته الحديدية القاسية ثم انطلق مُتجهًا نحو الجنود وهو يقول:

- عددهم ليس كبيرًا جدًا.. دعوهم لي فلطالما حصدت رؤوسا كتلك.. هيا أسرعوا.. انطلقوا أنتم نحو الجنوب.. مازال لديكم الوقت الكافي.. «حاروز» أنجو بها أنا أثق بقدرتك على ذلك، بسرعة.. هيا يا بنتي.. لماذا أنت واقفة هكذا ألا تسمعين.. اركبوا العربة واهربوا؟ هذا أمر..

لم تكن «داشيتا بحاجة إلى تضحيات جديدة، و هي ترى سُحب الدمار تتجمع

غيومها من جديد منذرة بعاصفة فهاهو «توزوي» المقاتل الشرس «رفيق الساعات القليلة الماضية» في طريقه إلى موت محقق..

أحكمت قبضتها على قوسها، و شدت الوتر بقوة أكثر من مرة وفي ثواني معدودة كانت سهامها القاتلة تنطلق نحو أعناق الجند المحيطين به.. بينما حمل «حاروز» جزع شجرة وجده قريبًا منه وهاجم أول من استطاع منهم الاقتراب من «داشيتا» ومن أول ضربة صار يمتلك سيفًا جديدًا ورمحًا لا بأس به، وانضم للقتال الشرس بجوار «توزوي».. وقبل أن تغلب الكثرة الشجاعة، كانت أجساد جنود الفرس قد بدأت تعرف طريقها إلى الأرض حيث دماؤهم المسفوكة..

سقط «توزوي» أخيرًا مُثخنا في جراحه.. لكن سيفه لم يسقط..!! فقد كان عالقًا في رقبة قاتله..!! احتجز بجسده بعض الجنود وهو يأمرها بالهروب بعد أن لاحظ غبار خيول فرقة جديدة تقترب..

لم تجد «داشيتا» أمامها سوى أن تودعه بنظرة عميقة الأحزان، وهي تُدرك تمام الإدراك أن هذه نهايته، فإصاباته غائرة ولا شفاء منها..

في لحظات كانت تقفز هي و «حاروز» على ظهر العربة الحربية.. وبدأت المطاردة العنيفة.. بينما لفظ القائد البطل «توزوي» أنفاسه الأخيرة وعلى وجهه ابتسامة الرضا، وبين جفونه خيالا جميلاً «لنيتيتس» الشابة حبه القديم.



دعوهم لي فلطالما حصدت رؤوسا كتلك

الهاربان



مازال بإمكان الليل أن يخبئهما بين ستائر ظُلمته، بعد أن فعل «حاروز» المستحيل من جديد ليحميها، وقاتل كل من سولت له نفسه أن يصل سيفه إليها، ورغم إصابته وجراحه ظل صامدًا وتنقل معها من قرية إلى قرية، ومن الصحراء إلى ضفاف النيل.. حتى وجد لها ما تحتاجه من أمان.. تمدد ساعتها هادئًا على البساط الأخضر.. وهو الجريح المحموم..

حاولت تطبيبه.. بما تملكه من أبسط الأشياء فمزقت.قطعة من ثوبها الفضفاض، وربطت جرحه الذي كوته بالنار منذ لحظات، فتمزق قلبها لألمه النازف عرقًا، ودمًا.. رغم أنه لم يصرخ لم يسمح لضعفه بالرحيل بعيدًا عن صدره..! بل كانت ابتسامته تتسع، وتلمع أسنانه البيضاء، وهو يشعر بأصابعها الناعمة تتجول على جراح جسده مداوية..

مازالت تتابع نظراته الحانية وهي تذهب سريعًا في عالم من الغفوة، التي تسلب الجسد قوته.. إنها تُدرك بفطرتها كم يُحبها.. تشعر بقلبه الذي ينبض عشقًا لها، ويفضح صمت لسانه.. دون أن تُدرك وجدت أصابعها الملتهفة تتحسسان شفتيه الغليظتين.. ووجهه الشديد السمرة واللمعان، تداعب شعره المُجعد وجبهته العريضة.. تمسح عرقه.. ترى في ملامحه طفولتها،.. هل عاش

يُحبها حقًا..؟ نعم لقد سمعت أحلامه بأذنيها في زنزانته المكسوة بعذابه، شيء ما قد تغير فيها الآن، صارت تفكر فيما مر.. تفكر فيه..!! تهفو إلى ابتسامات الطفولة العذبة.. تتابع دورة حياتها القصيرة المتقلبة، أسرتها الفانية المتحكمة في مصيرها، أعماقها صارت ضبابًا تهتف نظرات عينيها.. بما تُخفي ذاكرتها فتحدث نفسها همسًا:

ـ كنت يومها في السادسة عشر حين اختارني «سكنن رع» وكان في الثالثة والثلاثين من عمره.. كان هدية الفرعون «أماسيس» لأبي كاهنه المخلص، وزوج أخته الذي عاش عشرون عامًا سفيرًا له في بلاد كوش واستطاع خلالها أن يعلم شعوبها ديانته وجعلهم يسجدون لآلهته، ويرسلون الكثير من الذهب والقرابين إلى معابد آمون.. فرح أبي وهو يرى هذا القائد الشجاع والطبيب الماهر المُقرب من الفرعون.. الفاحش الثراء يتقدم لخطبتي... نَظرتُ إليه خِلسة من خلف الستائر الكتانية في تطفل لعلي أشعر بشيء من الألفة نحوه، أو أُرضي رغبة أمي التي كانت تدفعني ساعتها بلهفة وتطلب مني أن أصفه لها.. لكن قلبي لم يتحرك، كانت ملامحه جامدة، شديد الطول، ورأسه ضخم، تحيطه هيبة و لا يخلو من وسامة بزيه العسكري المتليء بالأوسمة الذهبية..

قال أبي أمام الجميع:

ـ نعم قبلته يامولاي، وسأكسر بينهما بعد أيام أبريق من الفخار، علامة على أنهما صارا زوجين، وله عليها كل الحقوق، ولها عليه الأمن والعطف، والمأكل والمشرب..

وقَبل الأرض بين يدي الفرعون..

أما أنا فقلت عند عودتنا:..

ـ لا أريده فأنا لا أشعر نحوه بشيء.. كنت ساعتها لا أزال صغيرة و أمامي الكثير لأتعلمه..

تحدثت بطفولية أزعجته قلت وأنا أشير إلى الأشجار والغابات الفسيحة:

- أنا هنا يا أبي أشعر بحريتي بين السهول و الأدغال.. في بلد أحببت أهله ولا أشتهي فراقهم.. لقد تعلمت الرماية بالقوس، وأتقنت الصيد، و ركبت ظهور الخيل، و قدت الزوارق في مياه الشلالات وو....

لأول مرة لم أجد الفرحة على وجه أبي حين يراني أتعلم شيئًا جديدًا.. لم يحملني بين كفيه ويقذفني في الهواء فرحًا لأرفرف بين النسائم وتعلو ضحكاتي وسط غناء العصافير ثم يلتقطني في أحضانه الدافئة، كما كان يفعل منذ سنوات ليست بعيدة.. أدركت ساعتها أنني كبرت، و صارت الطفلة بداخلي أنثى، ولم يعد يقوى على حمل أحلامي.. أو يقنعه وقع كلامي.. وصار رفضي للعبتي الجديدة التي دفعني إليها، حِملاً ثقيلاً لا يملك أن يتحمل نتائجه.

أجابني كفه القوي بصوته الناطق على خدي الناعم، مُعلنًا عن كارثة رفضي لمنحة منحها له الفرعون، منحة تستحق أن تصل إلى مرحلة العبادة.. لا الطاعة فقط منحة سجد من أجلها بين يدي الفرعون.. سيده... فرضخت لسطوته في انكسار.. وظللت في بكائي أسمعه يصرخ بأمي المسكينة ويهددها بالعقاب:

- لقد أمرتك أن تعلميها الغزل ونسج الحرير، وصباغة القطن.. أن تعلميها فنون التزيين وعادات بنات السادة والملوك.. والرسم على البردي.. فتركتها تتعلم ما يخص الرجال..

حتى أخي الوحيد والذي كان قد احترف السحر وحفظ التعاويز على يد كبار سحرة القصر ليصبح من خدم الفرعون وأعوانه، لم يستطع أن يكون ملجئًا لي.. بل كان قد عشق طاعة سيده، فصار يحاصرني، و يتابع خطواتي كظلي خوفًا من أن يجرني طيشي إلى شيء يدفعون ثمنه وينالهم عاقبته.

تم الزفاف سريعًا، و انتقلت لأحيا في قصر « سكنن رع » ، سبعة أشهر.. لم أنجح

خلالها في أن أكرهه كما كنت أشتهي.. كان يصمت ويبتلع تمردي بصبره، وحبه وثرائه الذي يُغرقني في هداياه.. لم أعرف خلالها هل كنت أحب زوجي أم لا.. حتى الجنين الذي نما في أحشائي، لم يكتمل ليربط قلبي به.. سقط مع من سقطوا في بداية المعركة.. كان هناك حاجز دائمًا بيني وبين « سكنن رع » فأنا فتاة برية كاللبؤة الشرسة، نموت وترعرعت على الحرية والانطلاق، ولم أر قبله قيدًا لي فهو ليس اختياري بل إنه هدية الفرعون، ورجله القوي، وهبته لنا، وعطاؤه لمن أطاعه.. لذلك لم أحاول أن أرى داخله، أو أصدق عواطفه، وكنت أعتبر فخره ببطولاته، هو قطعة الكتان التي يُلمع بها أوسمته التي ملأت بيتنا الكبير..

ولكن حين وجدته بعد المعركة يُعاني جريحًا سكرات الموت و حوله أربعة من الفرس غارقين في دمائهم..! و راية قُطعت يده دونها.. نظرت إليه.. كان للمرة الأولى عاريًا من ثروته وسطوته، خالي الصدر من الأوسمة الذهبية لكنه كبير بشجاعته وبسالته.. و حين ضممته إلى صدري امتلأ قلبي حناناً نحوه، وشعرت بأنني أمنحه قلبي وسامًا، ولأول مرة بدأت أخطو في درب حبه.. ورأيت على وجهه ابتسامة الرضا التي فارقني بها.. أقسمت ساعتها أن أنتقم له، ولأبي، وأخي الذان غادرا بلاد كوش.. بعد أن خلعا ملابس الكهنة و أقنعة السحرة.. وانضما إلى الشعب، وبقايا الجيش المدافع عن أرضه ليكونوا معهم صفًا واحدًا في مواجهة الفرس حتى شربت الأرض دماؤهم الطاهرة.

نعم قد يحدث أحيانًا أن نحب الرجل الخطأ.. أن نتزوج الرجل الخطأ.. لكن هل لابد من الفناء لكي نُصلح أخطاء ارتكبها غيرنا.

لقد انهار كل شيء تحول إلى طريق بلا رجعة.. الحياة موت مؤجل..

نعم فالموت يترصدنا منذ ولادتنا، وكل نفس نتنفسه وكل خطوة نخطوها، وكل وجبة نأكلها هي محاولة لمحاربة الموت ولكنها محاولة دون جدوى، نحب، نكره،

نفرح نحزن، نبني نهدم، كل شيء صار يفقد قيمته.

تنبهت «داشيتا» على صوت حركة قريبة فانتفضت وقد خرجت من عالم الذكريات إلى دنيا الحذر.. زحفت بهدوء من الكوخ الذي يخبئهم نحو التلال المطلة على القرية، كانت حركات الجنود التي ما تزال تفتش عنهما لا تهدأ.. و أضواء مشاعلهم تُهدد ظلام الليل.. ظلت تتابعهم دون حراك حتى مرت الكتيبة بالقرب منها وابتعدت..

نظرت« ديشيتا» نحو قارب مربوط بجوار النهر وقد وجدت فيه طريقًا للنجاة..لم يبق أمامها سوى اللجوء إلى ملك بلاد كوش، ولعله أن يكون في عودة ابنه «حاروز» له نوع من السلوى، وقد يعاونهما على الخطوة القادمة.



ملكة مصر وفارس



نظراتها النارية لا تعرف الهدوء أو السكينة، أما جسدها فهو كتمثال عاد إلى الحياة

كيف لها أن تمنع تلك الكراهية التي نبتت في قلبها، تجاه «أحمس أماسيس» الذي كان سببًا في إهانتها هي و أسرتها، وسلبهم السعادة والملك الذي تربت فيهما..

تلك الكراهية المدمرة التي ظلت تتزايد يومًا بعد يوم على مدى سنوات طويلة في قلبها.. قلب «نيتيتس»..

ذلك القلب الذي طار فرحًا لنصر ابنها « قمبيز» واعتلائه مُلك آبائها، ورفعها بجواره على العرش.. لكن فرحته تكبلت في لحظات، وتحولت إلى نيران تحرق صدرها حين علمت بعفوه عن «أبسماتيك الثالث» هو ومن تبقى من أسرته.. لم تتمالك غضبها أخذت تصرخ بين جواريها، وقد احمر وجهها الأبيض النقي.

ـ أحمق كأبيه.. كيف يعفو من انتصر..!! كيف يهب لعدوه قصرًا وحياة.. كيف يوقف سيل الدماء قبل أن يروي عطش انتقامي..

لكنها تعرف «قمبيز»، وتعرف أنه تربى وتعلم.. كيف يكون ملكًا.. قام بتربيته المعلم « كنترياس».. علمه أن كلمته قاطعة كسيفه، فكيف تستطيع أن تجعله يعاقب بعد أن عفا..؟

ثلاثة شهور، لم تنم لها عين، ولم تغفل عيونها المُندسة عن مراقبة قصر « أبسماتيك الثالث» مهما كلفها هذا من ذهب.. تأتيها التقارير كل يوم.. متى ينام، متى يأكل..؟ متى يشرب..؟ متى يَغدُر..!!!

نعم كانت تدرك أنه سيغدُر، فلا يمكن لملك مثله أن يترك ابنها يهنأ بعرشٍ أسقطه من فوقه.. مهما عفا عنه، ولن ينسى أيضًا دماء ابنه الذي ذُبح بلا رحمة، ولا ذُل ابنته وهي تسقي جنودهم، ومهما كان حذره.. فلابد له من سقطة..!، وظلت تلك السقطة هي حلمها، الذي سينزع عفو «قمبيز» عنه..

هذا العفو الذي رغم غضبها منه إلا أنه ملأ نفسها بالنشوة والراحة لأنه شمل أيضًا القائد «توزوي» حبيبها القديم والوحيد.. ذلك الرجل الذي كان مجرد وقع خطواته و رنين صوته كافيًا بأن يجعل قلبها يسبح في بحرٍ من المشاعر الدافئة، كم تمنت أن تراه.. بل أكثر من ذلك، فقد عادت تبحث في مقتنياتها القديمة عن بردية حب أرسلها لها يومًا.. ضمتها إلى صدرها، وعادت معها إلى زمان قديم متخطية السنوات بأحلامها العاشقة، أغلقت عليها بابها، واحتضنت وسائدها.. ظلت برهة لا تجرؤ على فض البردية حاولت منع ارتجاف يديها، و كأنها تتلقاها للمرة الأولى ثم قاومت ضعفها وراحت تقرأ، وتقرأ تستعيد الكلمات التي تتراقص على أوتار قلبها، وكأنها تستعيد معها شبابها و صباها، و ما إن أتمتها حتى تهاوت على سريرها و أغمضت عينيها، في فتور حالم و أخذت تستعيد ما قرأته، فشعرت بنشوة غامرة.. لم تعرف معها كيف تتماسك، حاولت..!! وكَبرَ عليها أن تذوب صلابتها عند تذكرها لنداء حبها الأول، وأن تخونها مقاومتها لكنها شعرت بنشوة غامرة.. و تدفق حبه من جديد كالشلال إلى نهر قلبها الساكن، فتحركت أمواجه مضطربة، حتى كادت أن تنسيها كل أحزانها، وبدأ القلب الجامد يرق...

اقتربت وصيفتها ومكمن أسرارها «تبترو» من الباب بحذر، دقته برقة.. فأفاقت «نيتيتس» من أحلامها منزعجة.. التفتت.. صرخت بلا وعي:..

- ما الأمر يا «تبترو» ألا أستطيع أن أخلو بنفسي لحظات.

أجابت الوصيفة بحذر:

- عذرًا يا مولاتي، ولكن معي من الأخبار ما يسرك، لقد جاء من تنتظرين.

لوهلة كادت أن تنطق باسمه قائلة: من «توزوي» لكنها تماسكت وانتبهت قائلة

- من تقصدين..؟

- «حور أب» يا سيدتي عينك المخلصة على «أبسماتيك الثالث» الفرعون الغابر جاء يحمل أخبارًا هامة.

دفنت «نيتيتس» البردية في صدرها بالقرب من قلبها بحركة لا شعورية، وانتفضت قائمة، وقد حاولت أن تعيد ذلك الوجه الجامد الذي كانت تخفي خلفه ما تبقى لديها من ضعف.

تقدمت نحو الرسول و قالت بجدية:

- ماذا لديك يا «حور أب»..؟

رفع «حور أب» رأسه في فخر قائلاً:

- لقد وقع «أبسماتيك» أخيرا يا مولاتي، ولم يعد أمام «ملكنا قمبيز» إلا أن يسحب عفوه ويقطع رأسه.

هبت فرحة:

- كيف..؟ أخبرني يا بشير الخير لعلي أمنحك ذهبًا.

- لقد تأكدت قيادته للثورات ضدنا وتأليبه للشعب، وعرفنا أماكن تدريبهم في المعابد، وهناك ما هو أكثر.. لقد قام قائد جيشه المنهزم «توزوي» بتهريب المجرم الأسود الذي حاول قتل الملك بسهمه المسموم.

رغم كل شيء شعرت برجفة في قلبها لسماعها لاسم «توزوي» إلا أنها أسرعت تستكمل الأخبار:

- ثم ماذا.. هيا أريد كل التفاصيل.

- لقد قُتل « توزوي» يا مولاتي وهو يقوم بمحاولة التهريب وفر الأسير و المرأة....

نزلت كلماته عليها كالصاعقة.. صرخت دون وعي:

- ماذا قُتل «توزوي»؟ توزوي قُتل.. ماذا تقول أيها اللعين الكاذب؟

دفنت وجهها بين كفيها وهي تكُمل كلامها: كاذب.. كاذب..

- لست بكاذب يامولاتي.. لقد قتل بالفعل، وحملوا جثته إلى «قمبيز».

- أغرب عن وجهي يا نذير الشؤم.. أغرب قبل أن آمر بسحقك.

أسرعت بلا وعي نحو غرفتها.. ألقت بجسدها الذي لم يحتمل الصدمة على سريرها.. تفجرت دموع قلبها كالبركان، أخرجت البردية من صدرها ودفنت وجهها فيها حتى كادت الدموع أن تمحو آثار الكلمات ولم تجد من تصب عليه اللعنات سوى الفرعون أماسيس وأبنه أبسماتيك، حطمت كل شيء حولها..

***

كان موت « توزوي» هو المسمار الأخير في تابوت « أبسماتيك الثالث» وبه تأكد لقمبيز كل ما بذرته أمه «نيتيتس» في قلبه من شكوك.. ثلاثة شهور وهو يؤلب المصريين على الثورة ضده.. ثلاثة شهور ورجاله يقومون بتدريب الفلاحين على القتال.. ويقتلون جنوده في الخفاء.

وأخيرًا يموت قائد جيشه وذراعه الأيمن في الثورة وهو يقوم بتهريب الفتى الذي حاول اغتياله.. نظر قمبيز إلى جثة« توزوي» بحنق وهمس:

كتيبة كاملة قتلها هذا الوغد.. كم تمنيت أن يكون في جيشي آلاف مثله.. أرسلوه إلى عائلته ليُكفنوه ويُكرموا جثمانه.. إنه يستحق موت الأبطال.

دم الثور الأسود



هذه المرة كانت ساحة المحاكمة منعقدة.. يحضرها، بسطاء الشعب، وكبراؤه.. يراقبون بأعينهم ملكهم، وهو يُكمل مسيرة نضاله، شامخًا برأسه الذي يُفضل الفناء على الانحناء..

كانت الملكة «نيتيتس» رغم أحزانها العميقة تراقب المرحلة الأخيرة من الذل التي أرادها ابنها للملك المهزوم.. فهاهي تجني ثمرات ما غرسته.. لم تستطع أن تترك هذا المشهد يمر عابرًا دون أن تملأ عينيها منه، خرجت من قوقعة و دعت كل من تبقى من أسرتها، وذبحت لهم الذبائح، تمنت أن تنسيها دماء «أبسماتيك الثالث» مقتل «توزوي» وتبعد عنها شبحه الذي لا يفارق أحلامها.

أما الموت الآن فلم يكن يُعني شيئًا بالنسبة للفرعون، فهو في قرارة نفسه يشعر براحة الضمير.. نعم فقد كان غزو فارس لمصر نتاج أخطاء غيره، لا أخطائه هو.. ثغرات وضعها والده الفرعون « أماسيس» في نظام الحكم وكبرت مع طول حكمه، وعلى رأسها اعتماده على الخونة والمرتزقة، و إنفاقه الذهب عليهم، وتسريحه لمعظم الجيش المصري.. أما هو فيعلم أن الأرض لايحميها إلا أصحابها، ولا يعرف قيمتها إلا من يولدون بين حناياها ويحيون من خيرها، وقد حاول قدر استطاعته فعل الكثير في الفترة التي سبقت المعركة، وحاول مرة أخرى بعد الغزو، وأنفق ما أمكنه على

إعادة تدريب الجيش، وتجنيد الفلاحين، لكن فقده «لتوزوي» كان أشد وقعًا عليه فلم يكن مجرد قائد لجنده بل كان الرفيق والصديق والناصح المخلص.

تبسم «قمبيز» هازئًا وهو يتحرك بحرية فاردًا يديه في فخر.. يدور بثقة حول «أبسماتيك» قائلاً:

- لم أعد أشعر بالغربة في مصر، صارت موطنًا جديدًا لي، وتواصلاً لدمائي الملكية التي تتدفق في عروقي.. نعم.. فأنا أخجل من نفسي أحيانًا كمن خان حبيبًا قديمًا اسمه بلاد فارس.. لكنها مصر التي يعشقها من عاش فيها، فما بالك بمن يملكها في قبضة يده ويتحكم في مصائر من بها.

توقف « قمبيز» فجأة و التفت نحو «أبسماتيك» وهو يحاول إظهار بعض البرود:

- ألم أعفُ عنك أيها الفرعون..؟ ألم أُكرمك أنت و أسرتك.. تركتك حرًا تتنقل من معبدٍ إلى معبد، تلتقي بالشعب وبالكُهان.. فلم غدرت بي، و ألبت الشعب ضدي.؟ هيا أجبني.. أسمعني كلماتك الأخيرة، قبل أن ترى عينيك عاقبة من استهان بعفوي، وتجرأ على مقاومتي.

لم يهتز « أبسماتيك الثالث» لتلك الكلمات الغاضبة، ولم يعد يخشى مصيره القادم، وهو يرى شعبه المترقب خلف أغلال الاحتلال لما سينطقه لسانه، نظر في عيني «قمبيز» بقوة، وقال بصوته الواثق:

- أيها الملك القوي المعظم في قومه قد تكون ملكت احترامي بعفوك عني لكنك لم تمتلك حريتي في المقاومة.

- المقاومة.. كان عليك وأنت تعيش في نعيمي أن تنسى تلك الكلمة، وتخلع من ذاكرتك ماضيك كله.

رفع الفرعون أنفه عاليًا وهو يُلقي ما تبقى في عمره من كلمات:

ـ لا يستطيع الإنسان أن يخلع ذاكرته كما يخلع ضرسه، يا بن «قورش» إن إخراج الأرض من داخل الإنسان غير ممكن، أما نعيمك الذي تحدثت عنه فهو ما اغتصبت مني فتلك أرضي، وذاك شعبي، والمقاومة كانت خياري.

صمت «قمبيز» وهو يشعر داخله بالإعجاب والتقدير لهذا الرجل لكنه لن يستطيع هذه المرة أن يمنحه سوى الموت.. وهو يرى بعينيه نظرات أمه «نيتيتس».. التي كاد يقتلها عفوه عنه في المرة السابقة.. أما موته فسيكون نوعًا من القمع يتوقف به سيل الثورات ضده..

صمت « قمبيز» للحظات ثم قال:

ـ لقد قلتها بنفسك.. هذا خيارك.. وعلى كل إنسان أن يتحمل نتيجة اختياره الخطأ.. نعم فقد قطعت بقولك كل السُبل إلى عفوي.

أشار « قمبيز» لقاضي المحكمة كي يُعلن حكمه المكتوب مُسبقًا..

ارتفع صوت القاضي فصمتت الهمهمات:

ـ حكمنا عليه بالموت على الطريقة الفارسية.. الموت بشرب دم ثورٍ أسود قاتل..

تقدم الساقي نحو «أبسماتيك الثالث» و هو يحمل بين يديه كأسًا كبيرًا ممتلئًا بدماء ثورٍ أسود..

لمعت عيون «نيتيتس» ببريق النصر، كادت تقف من شدة الانفعال.. وقال « قمبيز» بهدوء:

ـ والآن لنرى شجاعة الملوك.. هل ستتجرعه وحدك أم أنك بحاجة إلى من يسقونه لك جبرًا.

تقدم « أبسماتيك الثالث» نحو الكأس وأمسكه بقوة، ورفعه إلى أعلى وهو ينظر

نحو شعبه الباكي.. نحو ابنته المتمزقة القلب نحو دموعها المتناثرة كحبات اللؤلؤ،.. تبسم وقد لاح له طيف ابنه المقتول، وقرب الكأس من فمه هتف:

ـ ها أنا أموت وقد أديت كل ما أمكنني فعله نحو وطني.. لم أحن رأسي، فلا تحنوا رؤوسكم أبدًا..

ثم التفت نحو «قمبيز» قائلاً:

ـ أيها الملك الفارسي اقرأ البرديات، وما كُتب على جدران المعابد.. لترى تاريخنا.. ستُدرك ساعتها أنه لم يحتل هذه الأرض أحد وبقي فيها، فهي أرضٌ طيبة تحتضن أبناءها، ومن أحبها فقط، وتلفظ كل من اعتدى عليها و تقهر قاهريها.. فلا يجد المعتدي له فيها سوى قبر يؤويه والآن مرحبًا بالموت لألتحق بآبائي و أجدادي في الأفق.

رفع «أبسماتيك» الكأس على فمه، وشربه عن آخره.. مات على الفور.

و هتف الشعب له، تعالت صيحاتهم.. لم يمنعهم قمبيز..

بل قام، وحيا جثمانه.



الوزير الأعظم



هل تغير حقًا «قمبيز» أم أن مصر أسرته بجمالها.. إنه لم يعد له عمل سوى إصلاح الأضرار التي نتجت عن الغزو، حتى لقد منع رجاله عن التعدي على الأهالي.. هذه ليست عادته أيها المعلم.

ابتسم المعلم «كنترياس» وهو يرى هذه الحيرة على وجه الوزير الأكبر «ميجا»، ذلك الرجل الخمري اللون النحيل الطويل الممشوق القوام كأنه رمح، الذي تعدى الحلقة الخامسة من عمره، ولم يزده الزمان إلا دهاءًا، و أشار له من شرفة القصر إلى منظر النيل الخلاب، وحوله الأراضي الخصبة قائلاً:

ـ إنها مصر يا «ميجا».. كل فاتح عظيم يظل يفتح في البلدان ويضمها إلى مملكته، وهو يحلم أن يُنشيء حضارة، فكيف إذا فتح بلد الحضارة نفسها، بلد العلوم، ألم يحلم كل مثقف في بلاد فارس أن يتعلم يومًا هنا في جامعة «أون».. أول جامعة في العالم..؟! أم أنك اشتقت إلى التخريب و إشعال النيران.. في القبائل الهمجية التي طالما بسطت قوتك عليها.

نظر له الوزير بقوة قائلا:

ـ أخبرني أيها المعلم الصالح، هل هذا حقًا «قمبيز» الملك المحارب المغامر الذي يفيض بالقوة، ويعشق السيطرة والغزو، ويحتقر التواضع والجبن، ولا يعرف التلطف والرحمة..؟ أم أنه

شخص آخر قد ركن إلى الراحة والتواضع، ونسى الشدة والعنف.

- بين الشدة والرحمة يستريح الناس، وتخمد الثورات أيها الوزير.

- رحمة.. أية رحمة تتحدث عنها، إن للسادة أخلاقًا وللعبيد أخلاقًا أخرى، وهناك مسافات بعيدة تفصل بين جنسنا نحن السادة، وهذا الجنس المسود المغلوب المقهور تحت سيوفنا، فنحن الفرس أبناء بابل وأسياد البشر.

اشتعل المعلم غضبًا لكنه تماسك قائلا:

- ليس من حق الشعوب أن تؤكد ذاتها، وترفع من شأنها بازدراء شعوب أخرى، وطمس تاريخها لمجرد أنها نجحت في هزيمتها.

- ولم لا تفعل ذلك، وهي الأقوى.. لقد نشأت الحضارات الكبرى على أنقاض الضعفاء، وتحلى أصحاب الطموح بالشجاعة، وعدم الرحمة، وزرعوا الأرض في آسيا، وأوروبا وجزر المحيط مغيرين على كل الأرض التي يمرون بها، ليجعلونها خاضعة لهم، ويفرضوا سيطرتهم.. وهكذا نشأت الحضارات اليونانية، والرومانية من قبل، وحضارتنا نحن عظماء فارس.. فمشاعلنا المقدسة تحرق كل ما في طريقها لتضيء لنا طريق المجد.

- على رسلك أيها الوزير فلا تستطيع عيني أن تتعود على رؤية هذا النور الباطل الخداع الذي تحدثني عنه، و إنما علمتني الحياة أن الحضارة التي تقوم على القيم و الأخلاق، والبناء، و ليس على الهدم، والدمار والتخريب، ولهيب النيران.

- لا تسخر من التخريب، ولهيب النيران المقدسة التي نعبدها، أيها المعلم فإنما تزداد بهما هيبته، ولا يستهين به شعب هو سيده.

اعتدل المعلم في جلسته قائلاً:

- وراؤك شيء تكتمه يا ميجا، أفصح فمن يجرؤ على الاستهانة بقمبيز المعظم

بن قورش الكبير.

- سيدي لقد خَبرت الحرب، وطبائع الشعوب، ومعادن الرجال، وأنت أعلم الناس بمدى حبي لفارس، وملكها المعظم..

- لا تذكرني بشيء، فأنا أعلم الناس بك و بإخلاصك، وأعلم أنك في منصبك هذا منذ عهد قورش..

- حسنًا لقد اختصرت علي الطريق، فهل يُرضيك تقرب قمبيز من آلهة المصريين،.. هل كل هذا لإرضاء أمه « نيتيتس » المصرية.. إن جنودنا يتذمرون، وقد رأوه ينادي بنفسه فرعونًا، وكأنه من المؤمنين بالإله آمون، وبالإلهة نيت.

تنهد المعلم «كنترياس» و قال ببساطة:

- و ماذا يُضير جنودنا.. إنها دواعي السياسة يا «ميجا» فلو آمن به هذا الشعب فرعونًا و ملكًا عليه لنسوا أنه غازٍ وأطاعوه، فنربح شعبًا جديدًا وجيشًا يُدين لنا بالإخلاص، وقد خبرت بنفسك صلابة المصريين في القتال..

ظهرت نظرة السخرية على وجه «ميجا» وهو يقول بهدوء:

- فرعونًا..

داعب «كنترياس» لحيته البيضاء للحظة، وقال وهو يرمي الوزير بنظرة ثاقبة:

- إنه وريث شرعي لفرعونهم السابق «إبريز» جده لأمه أنسيت هذا.؟!

لاذ « الوزير الأعظم ميجا» بالصمت لحظات وبدى على وجهه الضيق.. ثم التفت إلى المعلم «كنترياس» قائلاً:

- لقد كان التحالف بين ملكنا «قورش» الكبير، وبين أحمس أماسيس بزواجه من تلك المصرية خطأ كبير منذ البداية.. فما حاجة الفرس إلى التحالف وقد غدوا يحكمون نصف الدنيا.. ولم ينج من غزوهم ساعتها غير مصر واليونان؟

ـ أنسيت أن الإمبراطوريات الكبرى إذا اتسعت رقعتها وتعددت أجناسها، فستبدأ بوادر التمرد تدب فيها، لذلك فقد كان «قورش» يَحذر الحروب الكبرى مع الأجانب حتى لا تنتهز الولايات المتمردة فرصة غياب الجيش فتنتفض عليه؟

ـ لكن هناك ما أخشاه، ولا يمكن كتمانه.

ـ إذًا أفصح به، و لا تؤجل ما جاء بك إليَّ.

ـ لقد دسست رجالي بين المصرين، وعلمت بأن كهنة آمون تنبئوا بهزيمة «قمبيز».. وهذا آثار فرحة غامرة بين طوائف الشعب، و انهمرت القرابين لمعبده الكبير بواحة سيوة.

ظهر الإضطراب على وجه المُعلم وقال بامتعاض:

ـ إن علم «قمبيز» بذلك فسيجر هذا على شعب مصر حربًا طاحنة..

أحنى الوزير رأسه ثم رفعها في إصرار وابتسامة ماكرة لم يستطع أن يخفيها وهو يستعد للانصراف وقال بحدة:

ـ يجب أن يعلم.. فكرامة ملكنا تساوي الكثير.

تنهد المُعلم «كنترياس» وهو يراقب خروج «ميجا» من القاعة وقال هامسًا:

ـ ما أراد هذا استشارتي، ففي صدره نيران كانت بحاجة لبعض الحطب كي يزداد لهيبها، مازلت في حيرة من أمره ولا أدري هل هو صديق ودود.. أم هو عدو لدود.

وقبل أن يعود المُعلم « كنترياس» إلى مجلسه جاءته إحدى الوصيفات تطلب منه الحضور إلى جناح الملكة « نتيتس» فهي بحاجة لاستشارته.. تبسم المُعلم هامسًا :

ـ ما أكثر من هم بحاجة إلى استشارتي اليوم.



المرض القديم



عندما فُتح باب الجناح الخاص بالملكة داعبت رائحة العطور و البخور المنبعثة أنف المُعلم.. تقدم نحو الردهة الواسعة والجواري يُفسحن له المجال إلى أن وصل إلى أريكة مذهبة وملونة بألوان زاهية، عليها وسائد محشوة بريش النعام، وقد جلست فوقها الملكة «نتيتس» بين وصيفاتها، كأنها زهرة في بستان، و أمامها طبق من الذهب مملوء بشتى أنواع الفواكه وما إن رأته حتى أشارت إليهن بالانصراف، وقامت مرحبة، وهي تفسح له المجال للجلوس قريبًا منها:

- إنه لمن دواعي سروري أن أرى المُعلم والطبيب الأكبر «كنترياس» في جناحي الخاص رغم أنني أجهدتك بالمسير إليَّ..

- قد كان لي دائمًا شرف لقاء الملوك العظام في أجنحتهم الخاصة يا مولاتي.

شعرت «نتيتس» بشيء من الفخر عند سماعها لهذه الكلمات... هذا الرجل يعرف كيف يُرضي شيطان العظمة المتربص بداخلها.. تبسمت وهي تُقدم له بيدها عنقودًا من العنب:

- مازالت حكمتك تفيض علينا رغم انطواء عامك السبعين.

تبسم قائلاً:

- هذا العام ودعته منذ زمان طويل..

وعندما قرأ الدهشة في وجهها أكمل قائلاً:

ـ تلك أعضاء حفظناها صغارًا فحفظتنا كبارًا يا مولاتي..

ـ لو كان لبشر خلود في الدنيا لكان لمثل من هم بحكمتك السبق في الاختيار أيها المُعلم.

ضحك «كنترياس» من هذا الثناء ورفع يديه قائلاً:

ـ و ما حاجتي إلى الخلود إذا كان طول العمر يُحني الظهر و يُجعد الجلد، ويُضعف البصر، ويجعلنا بحاجة إلى عون من كنا نعينهم، فيتحكمون في مصائرنا كما يتحكم الطفل في لعبته..

صمت لحظة ثم استطرد قائلاً:

ـ ولكن اعذريني ملكتي الغالية إذ يغلبني فضولي، فدعوتك لي كانت أبعد الأمور إلى خيالي، فأنا لم أدعى لجناحك هنا من قبل ولا في فارس، ولم أنل هذا الشرف وذاك القدر من قبل.. لذا أتساءل فيمَ أرادتني الملكة.؟!

ـ حسنًا.. أنا أعلم الناس بطبعك، ولن أثقل عليك، سأدلي بما عندي بلا مقدمات..

.. أخشى على «قمبيز»..

ـ مِمَن..؟

ـ من نفسه..

ـ كيف ذلك..؟

ـ أنت تعلم بأنني أسعد الناس لتقربه إلى آلهتي، إلا أنني أراه قد أخطأ بتعيين «وزحاررسن» طبيبًا خاصًا له.

تعجب المُعلم وهتف قائلاً:

ـ «وزحاررسن» ألم يكن هذا الرجل هو قائد الأسطول المصري الذي تعاون معه في الفتح.؟

ـ تقصد الذي خان بلاده.؟ من الأفضل أن نُرجع الأمور إلى نصابها عندما نتحدث بعد أن عادت إلينا بلادنا.

ـ نعم . نعم.. ومن يَخُن مرة تسهُل الخيانة عليه.. أليس هذا ما أردتِ قوله..؟

ـ بالفعل..

ـ ما علاقته إذًا بالطب.؟

ـ إنه طبيب ماهر فقد درس الطب على يد كهنة معبد« سايس» وتخرج أيضًا من جامعة « أون» وعمل بها فترة من الزمان قبل أن يلتحق طبيبًا بالجيش، ويصبح مع مرور الزمن قائدًا للأسطول..، أعطاه «قمبيز» مناصب أخرى نظير خدماته له فقد جعله أيضًا رئيس المراسيم، و مرشده إلى العادات المصرية القديمة، الدينية منها والاجتماعية.

ـ وما مدى تأثير هذا الداهية عليه..؟

ـ لقد جعله «وزحاررسن» يتخذ خمسة ألقاب فرعونية، كما هي عادة الفراعين عند توليتهم لعرش مصر، وقد ألف له هذه الألقاب و الأسماء وأوضح له الأهمية الدينية لمدينة «سايس» فقط (مدينته هو) ومسقط رأسه وقد بلغ الأمر حداً لا يُستهان به، لقد ركع «قمبيز» لمعبودتهم «نيت» فى معبدها وقدم لها القرابين.

تململ المُعلم «كنترياس في جلسته وقال لها:

ـ عذرًا إن كنت لا أحب أن تستخف مولاتي بعقلي، و أنا شيخ هرم، فأنتِ لم تأتِ بي من أجل هذا الأمر فقط، فكلها خطوات تؤيد وجوده كفرعون لهذا البلد، وأنت أكثر الناس سعادة بها ، واستفادة من هذا الأمر، أما «وزحاررسن» فلن تخذلك الحيلة إن أردتِ التخلص منه.

ترقرقت دمعة حبيسة في عينها وهي تتماسك قائلة:

ـ حسنًا هناك ما هو أخطر من ذلك..

ـ وما هو..؟

ـ لقد عاوده مرضه القديم..

انتفض المُعلم وقد تنبهت كل حواسه في لحظات:

ـ الصَرع..!!

ـ نعم.. وأنت أدرى الناس بما يفعله به..

و في لحظات فتحت سجن جفونها لدموعها المنسابة وهي تُكمل حديثها:

ـ وكم يكرهني ساعتها؛ لأنني كنت سببًا في هذا المرض عندما أوعزت إليه أن يقتل أخاه من أبيه «بورديا» لكي يعتلي العرش، ويملك فارس.. و من يومها وهو يخشى شبح أخيه الذي يُصاحبه في أحلامه، ويقوم من نومه صارخًا.

نزل الخبر على المُعلم «كنترياس كالصاعقة، و في لحظات بدأ يُدرك الخطر، ويقرأ في عينيها الباكيتين ما أرادت أن تقوله.. حقًا من الخطر وجود الخائن «وزاحررسن» قريبًا منه بل وطبيبًا له، وماذا يُمكن أن يحدث لو علم الشعب، وكهنة آمون أن القائد العظيم و الفرعون الحاكم «يُصرع».. وماذا لو جاءه الصرع بينهم..؟

ظلت الأفكار تتلاحق على عقل المعلم، لكنه انتبه من أفكاره فجأة، وانتفضت الملكة «نتييتس» من مكانها وهي تمسح عينيها، وقد تناهى إليهم صوت «قمبيز» الغاضب، وهو يعبر الردهة متجهًا نحو جناح الملكة.

الحملات الحربية



ما هي إلا لحظات حتى كان «قمبيز» قد هرع إلى جناح الملكة، واقتحم بابها بعنف، وصوته المرتفع يسبقه..

- أخبريني، أيتها الملكة المصرية، يا سليلة الفراعين العظام.. ما تلك القوة الخفية التي تُكره الملك المُرتفع الشأن على الانخفاض إلى الأدنى..؟ وكيف يُمكن لكهنة هذا التمثال العتيق، أن يتنبؤوا بهزيمة أعظم ملوك الأرض.؟! كيف يمكن للفأر أن يزلزل عرينا لأسد؟!!

لاحظت الملكة وجود الوزير الأعظم «ميجا» وهو يتسلل داخلًا خلف «قمبيز» كأفعى بينما ذُهل قمبيز« وهو يرى المُعلم «كنترياس» في جناح الملكة.

شعر الوزير «ميجا» برياح المؤامرة.. بينما تبسم «قمبيز» لمعلمه متسائلاً وقد خفض من صوته، وتناسى ما جاء لأجله:

- أي ريح طيبة أتت بك أيها المُعلم الصالح.؟!

تبسم المعلم، وقد أسعفه ذكاؤه قائلاً:

- نفس السؤال الذي جئت تسأله للملكة.. ما قوة كهنة آمون..؟ وعلى أي شيء يُسيطر معبدهم.؟ فقد أخبرني وزيرك المبجل بما تنبأ به كاهنهم الأكبر، وكما تعلم أن ملكتنا العظيمة هي أدرى الناس بخفايا و أسرار القوة في قومها.

تنفست الملكة «نتيتس الصعداء وأجابت بلا تردد:

إن أردت أن تعرف فإن لمعبودنا آمون قوة لاحدود لها فهو يُسيطر على عقول، وقلوب المصريين، وقوتهم أيضًا، ولكهنته نصيب في كل هذا.

ضحك «قمبيز» حتى كادت تتفتت أضلاعه من شدة الضحك.. شاركه ضحكه وزيره « ميجا».. وعندما قرأ الدهشة في عيون سامعيه.. توقف واستحال ضحكه غضبًا وهتف بلا وعي:

ـ و ما رأي معلمي..

رمقه المُعلم بنظرة هادئة تملؤها الحكمة قائلاً:

ـ إن النعامة تعدو أسرع مما يعدو الخيل غير أنها لا تزال تَغرس رأسها في التراب خوفًا عند اقتراب الأسود..! فاجتهد أن يظل رأسها في حفرتها.

أكمل قمبيز ضحكاته التي أخذت تزداد ارتفاعًا، وكأنما قد أصابه الجنون:

ـ بل سأردم الحفرة على الرأس الجميل..

ثم التفت بنظرة ملؤها السخرية نحو أمه «نتيتيس» وقد بدأ يداعب عينيه شبح أخيه المقتول..

ـ عذرًا فأنا أعلم أن آمون معبود أجدادك، ولكن لكل شيء نهاية، حتى آلهتك..

شعر «قمبيز» بأعراض مرض الصرع يسري بداخله، وبدأ وجهه في التشنج.. وعروقه في الانتفاخ، لاحظت الملكة ذلك أيضًا، وعلى الفور أسرعت تأمر الوصيفات بأن يتركن الجناح بينما اتجه «كنترياس» صوب الوزير وهو يطلب منه أن يترك الملكة مع ابنها لعلها تخفف عنه شيئًا من غضبه.

***

خلت القاعة في لحظات، وصمتت كل الأصوات إلا صوت «قمبيز» الغاضب الذي ظل يخفُت بالتدريج ويتحول إلى تشنجات، تقلب بعدها على الأرض وهو يضغط على أسنانه بقوة، وفقد تحكمه في نفسه، بينما عاملت «نيتيتس» الأم هذا الأمر بحكمة وخبرة حانية.. حتى مرت الأزمة.. لكنها هذه المرة كانت أطول و أشد من المرات السابقة، حتى أن الملكة العظيمة انهارت وفقدت تماسكها وهي تحتضنه وتغسل وجهه بدموعها.

أفاق «قمبيز» بين أحضان أمه الباكية و هو يتصبب عرقًا، نظر إليها بوجهٍ مُتعب، حاول أن يتحرك.. كان جسمه كله مُنهكًا.. تماسك، قليلاً وقطب جبينه، وهو يدفعها بعيدًا عنه..

مسحت شيئًا من دموعها قائلة:

- لِمَ تُصر على هذا الجفاء يا بُني..؟ حتى في تلك اللحظات تدفعني بعيدًا عنك.!!

تماسك وهو يحاول النهوض من مكانه شاح بوجهه بعيدًا وهو يتجنب نظراتها قائلاً:

- أنتِ أدرى الناس بالأسباب يا « نيتيتس».

- هذه المرة أيضًا لم تقل يا أمي.. سنوات طويلة وأنت لا تعاملني كما يُعامل الابن أمه..

ارتفع صوته غاضبًا وهو يُشيح لها بيده:

- أما يكفيكِ ما جعلتك فيه من مجد، لقد صِرتِ ملكة مصر وفارس، ألم أحقق حلمك؟!! وأجلسك بجواري على عرش آبائك و أجدادك.

- لكنك تغيرت من ناحيتي، أين عطفك وحبك، أين وجهك الحنون، وابتسامتك الصافية التي كانت تُشرق على أيامي.. أنني أفتقدك يا «قمبيز» أفتقدك..

أنسيت أنك وحيدي، وقرة عيني.. كلما نظرت إليك باحثة عن عطفك واجهتني بنظرات جامدة، خالية من مشاعر الحب، لم أعد أجدك في عالمي أين أنت؟ أين ولدي..؟

تحول بريق عينيه في لحظات إلى نيران مشتعلة هتف:

- ولدك.. لقد ذهب مع من ذهب به خنجري..

- مازلت تُحملني ذنب قتلك لأخيك «بورديا».

- و كيف لا تُريدين تحمله..! وأنت التي ضيقتِ علي الدنيا يومًا.. حاصرتني بمؤامرات تُحاك من حولي، حتى أظلم الكون ولم يكُن من ضوء أمامي سوى دمه الأحمر المتدفق... مازال يتدفق من يومها أمام عيني بلا توقف.. مهما أرقت من دماءَ بعده.. تبقى على يدي آثار الدماء الأولى.. دماء.. هابيل خير ابنَي أدم..

تماسكت «نتيتس» و عادت إلى شموخها ومدت يدها بتلقائية لتُصلح، ما تهدل من ملابسه وهي تقول بهدوء مُصطنع:

- لقد انتهى هذا الأمر منذ زمان بعيد، وملكت فارس.. ليس فارس وحدها ملكت مصر.. ملكت الدنيا كلها.. صرت أعظم ملوك الأرض، .. فلا تحزن على لحظة شجاعة هَزمت فيها ضعف نفسك.. فلولا تلك اللحظة الفاصلة من العزيمة لكنت الآن مكانه مدفونًا تحت أرض فارس، وما كان سيحفل بك، ولا سيصل إلى ما وصلت إليه من مجد.. هل كنت تظن أن هذا التعيس ابن ضُرتي الفارسية كان سيتركك تملك عرش أبيه..

وضع قمبيز وجهه بين كفيه صارخًا:

- إلى متى تُصرين على محاصرتي..؟ ألم يأن الأوان لتصمتي..؟

- أَصمت..!! ولماذا أصمت..؟ إنما يصمت الإنسان العاجز، ويحني رأسه خجلاً عن خزيٍ ارتكبه، وأنا لم أفعل شيئًا سوى أنني رأيت في عَيني وحيدي بريق

الطموح، وشعرت بإرادته القوية، جوهر وجوده، وهي تهزم ضعفه، نعم.. رأيتُ القوة في عينيك أيها الشجاع، فحياة الضعيف حياة فقيرة، جوفاء مقززة، أما حياة القوي فخصبة كلها فيض وثراء.

- مازلتِ تتحدثين عن القوة والضعف، منذ وعيت على الدنيا وأنا لا أسمع منكِ سوى تلك اللغة.

- نعم لقد دربتك على الخشونة منذ حداثتك، ثم إن الشعب كان يخشاك ويرهبك لأنك «قمبيز» الجبار فيخشع لك صاغرًا، أما «بورديا» فكان محبوبًا من الناس دونما رهبة ذلك فقط لأنه كان شبيهًا بأبيه «قورش» وما كان يسوؤني شيء أكثر من أنه لا يمتاز ببطولة وأعمال عظيمة مثلك لتفسر وتبرر حب الناس له.

أقتربت منه وهي تلقي بكلماتها الثائرة:

- لقد كان أخوك بورديا ضعيف الإرادة رغم كرهه لك، ويتمنى موتك إلا أنه لم يكن يريد أن يخاطر بشىء، أما أنت فقد أردت المخاطرة بكل شيء.. نعم بُني.. فالضعيف يكتفي، بتجميع الأخطاء والشعور بالغضب، وتمني الانتقام.. أما القوي فيهجم في الحال قبل أن تنطفيء شعلة الحماس.

- اصمتي كفى.. كفى..

- لا لن أكتفي، فلكل حقيقة عدة وجوه، لقد كانت المؤامرات تُحاك ضدك ليل نهار، و أنت أعلم الناس بفني في دس العيون، وتلمس الأخبار، وشراء الأنفس بالذهب..

- قُلت كفى..

أكملت وقد ارتفع صوتها في جنون غير مهتمة بغضبه:

- ظنوني تلك المحظية الضعيفة التي تَستكين وتخضع مسلوبة الإرادة، وتفقد ابنها، وتصمت عاجزة، وحيدة في بلادهم بلا حامٍ، إن «قورش» لم يملأ عينه غيري

رغم كثرة نسائه، ومن حقي أن يكون وريثه هو ابني؛ لأنه أشرفهم نسبًا.

ـ كلانا ولد قورش، أنا و أخي «بورديا» أنسيتِ.

ـ لا لم أنس، ومهما كان مُلك «قورش» وعظمته فأنت تتفوق على أبنائه بأنك من نسل الفراعين آلهة الأرض.. دماؤك تختلف لأنها تستحق أن تسود ومن حق الآلهة أن تحكم العبيد.

صرخ قمبيز وقد فقد صبره..

ـ آلهة.. ها ها ها.. يا لها من آلهة لا تقي نفسها شر الصرع.. تتمرغ في تراب الأرض، مُتشنجة غير قادرة على السيطرة على نفسها.. يؤرق أحلامها شبح أخ مقتول..!! تَرى دماؤه المسفوكة على يديها في منامها كل ليلة.. ما أحقر تلك الدماء التي تسري في العروق وتدعين أنها تُعبد..!!

ما أعجب قومك يا «نيتتس»..! إما أن يعبدوا بشرًا أو حجرًا، أو عجلهم هذا المُسمى «آبيس».

ـ لا تسخر من العجل «آبيس» فيؤذيك إنه إله الخصوبة ومصدر الخير لبلادنا تريث، وفكر قليلاً فيما أنت مُقدم عليه..

قام «قمبيز» من مكانه وهو مازال يترنح.. إستند على الباب وقد تملكته ثورته قال:

ـ أنا لا أتردد في قرار اتخذته و إلا فالويل لي إن وقفت يومًا حائرًا بين «نعم أو لا»، و أعدك أن أذبح هذا العجل الكريه يومًا بيدي.، أما الآن فسأُسير إلى سيوة جيشًا عظيمًا ليقوموا بتخريب معبد آمون، ويتعقبوا هذا الكاهن اللعين الذي أراد أن يربح قرابين المصريين بتنبئه بمصيري.

وسأستفيد من هذا الجيش في تأمين الواحات، وإخضاع قبائل الليبيين هناك.

قال « قمبيز» هذه الكلمات وهو يصفع باب جناحها الملكي خلفه،.. ولم يسمع

صوتها الهامس:

ـ لقد أصبحت أنت نفسك بحاجة إلى إخضاع.

كان أول ما فعله «قمبيز» عند وصوله إلى قاعة العرش هو استدعاء طبيبه المصري «وزحاررسن» الذي أسرع إليه ولم ينس كعادته أن يحمل معه قارورة دواء أعدها من أعشابه لعلها تُهديء أعصاب سيده الثائرة.

حرص «قمبيز» على أن يختلي به فور وصوله بعيدًا عن العيون..

أسرع الطبيب يُقدم له زجاجة الدواء وهو يمدح ما فيها، ويخبره عن أسراره في الشفاء وتهدئة الأعصاب.

دفع «قمبيز» الزجاجة بعيدًا ثم التفت إليه قائلاً في صراحة أذهلته:

ـ «وزحاررسن» أنت تعلم جيدًا أنني لا أحبك..

فرمقه بذهول وقد شعر باقتراب العاصفة لكنه تبسم في برود ظاهر:

ـ ليس الحب هو كل شيء يا مولاي إنما يندم على الحب النساء.. ولكن ما يقلقني هو.. هل يشك مولاي في إخلاصي له.؟

ـ أنا لم أُقربك مني من أجل إخلاصك، ولكن ما قربك مني هو عكس ذلك تمامًا إن كنت تذكر..

ـ مولاي للحرب دروبها، وقد كنت أقود أسطولا لرجل لا تفيض يداه بأكثر من قوتي، وقد سحب منى بعد توليته الحكم كثيرًا من مناصبي الدينية في «سايس».

ـ حسنًا لم آت بك لأحاسبك، ولكن لأضع ميثاق عمل جديد.. فأنا أعرف الثعابين و الحيات التي تبثها في كل مكان، وتأتيك بما خفي من أخبار، فكُن عينًا لي و ليس عليَّ..

ـ مولاي أنا عينك الساهرة على أمنك.

تبسم «قمبيز» ساخرًا:

ـ بقي شيء يجب ألا تنساه.. إن أردت بيعي يومًا فتذكر أن الثمن عندي أكثر سخاءًا، والذهب أيضًا أشد نقاءًا.

ـ وهل يبيع العبد سيده..؟!!

ـ ببعض الدواء..

انتفض «وزاحررسن» وتصبب عرقًا لكنه تماسك، وهو يرى عيني «قمبيز المتفرستين الراصدتين لانفعالاته فاستطرد يقول:

ـ لكني لم أفعل.

ـ وهذا الدواء..

ـ إن أردت أن أشربه أمامك شربته.

ـ ولماذا لم تبعني إذًا..؟

تردد « وزحاررسن» قليلاً لكنه نظر بحذر في وجه « قمبيز» قائلاً:

ـ قد اتفق مولاي معي الآن على أن أصدقه القول..

ـ حاول ..

ـ فهل تعطيني الأمان.؟

ـ لك هذا.

ـ الثمن الذي جائني قليل.

ـ كم دفع لك وزيري الأكبر..؟

ـ يبدو أن مولاي لا تغفل له عين.. حسنًا لقد عرض عليَّ عشرة آلاف قطعة ذهبية.

- لم أكن أعلم أنني غالي الثمن عنده هكذا فَلِمَ لم تفعل.؟

- إنه عندي ثمنٌ قليل.

- يالك من جشع وما الثمن إذًا.؟

هز «وزاحررسن» رأسه ورفع أنفه العريض قائلاً:

- من يملك مصر وفارس لا يكون ثمن قتله أقل من مدينة عظيمة أحكمها وأفوز بخراجها..

- ها ها ها.. يبدوا أنك تعرف جيدًا ما تريد.. حسنًا الثمن عندي إذًا وهو فوق ما تحلم به.

- ثمن ماذا..؟

- عونك.. وعدم بيعك لي..

- لكني لا أبيعك فأنت..

- كل شيء حولي يباع، فلا تدعي الفضيلة.. أتعرف مدينتك المحبوبة «سايس».؟ قريبًا يَصلها حاكم يكون له خَراجها إن أخلص في تعاونه.. وإن غَدر يرها أكوامًا من تراب.. تأكلها النيران وهو في جوفها.

هتف «وزاحررسن» في ذهول:

- مولاي أنا عبد إشارتك.

- فلتكن عيني على من في قصري من ملوك وقادة.

- ملوك..!! تقصد..

- «نيتيتس».

- الملكة.. لماذا؟!!

- ليس هذا شأنك، ولا تسأل عن شيء يكون فيه نهايتك.

ـ حسنًا إنه أمر هين فبين وصيفاتها من يمكنه أن يحصي لي أنفاسها إن أردت..!! و الوزير «ميجا» ماذا أنت فاعل به يا مولاي.

ـ وزيري اللعين سيؤدي واجبه إلى النهاية وعلى أكمل وجه، فسأرسله على رأس جيش عظيم قوامه خمسين ألفاً من الأشداء ليهدم هذا المعبد و يؤمن تلك الناحية من الوادي.

ترك «وزحاررسن» حذره وتحدث بلا وعي:

ـ مولاي « إن « ميجا» أخطر مما يبدو عليه، أنت تعطيه فرصة العمر، لو كنت مكانه لما ترددت في أن أنفصل عنك بهذا الجيش، سيُصبح بذلك تهديدًا لك.. إنه لا يتوقف عن تأليب الجند عليك.

ـ هل تظنني في غفلة عما يفعله هنا مع الجند، وعن دوره في تلك المؤامرات القائمة ضدي في بلاد فارس.

ـ إذًا من الحكمة ألا تُملكه منك..

ـ بل أعطيه ما يحلم به جيشًا جبارًا، ومع الجيش من المخلصين.. من يأتونني برأسه إن داعبت الخيانة خياله.

هز «وزحاررسن» رأسه منتشيًا.. فهو لم يكره بداخله أحدًا مثل كرهه للوزير «ميجا» ذلك الفارسي المغرور الذي يحتقر كل من ليس فارسيًا.. أحنى رأسه لقمبيز حين أشار له بالانصراف، وانطلق في طريقه، وعقله لا يتوقف عن الحركة والدوران، وبدأت مدينة «سايس» تدور بخياله كالحلم الذي بات وشيكًا أن يتحقق.. رأى نفسه جالسًا على عرشها يحكمها.. وبمجرد وصوله إلى مكان آمن بالقصر أرسل من يحضر له الوصيفة « نبترو».

أما «نيتيتس» فبعد تلك المواجهة بينها وبين ولدها «قمبيز» أصبحت تحسب كل الخطوات القادمة، فهاهو يُصرح بكرهه لها، ذلك الكُره الذي سكن أعماقه رغم

تناقضه مع كل ما حققه لها من نصر وجلوس على كرسي الحكم في مصر بجواره، إلا أنها تعرف جيدًا أن الولد العطوف الذي كان يسكن بداخله قد كبر على شيء غير العطف، و أن الحروب والدماء استطاعت أن تصنع إنسانًا آخر من إنسانه القديم، و إن ما يبقيه عليها الآن ليس سوى خيط رفيع من روابط الدم سيزول ويختفي يومًا بعد يوم، وعليها أن تحافظ بكل قوتها على ماتبقى منه.

***

ظلت أفكار الفتح، والتوسع تشغل عقل «قمبيز» فهاهو الجنوب حيث تكمن بلاد «كوش»، «ومروي» بثرواتها، الطبيعية، فلا أمان لملكه بمصر في الشمال، إلا إذا امتلك معه الجنوب الأفريقي كله.. لذلك بدأ مع كبار قادة جيشه في وضع الخطط البعيدة المدى. وكان أول ما فكر فيه هو السيطرة على الواحات، وتأمين جنوب مصر، ثم الانطلاق نحو بلاد كوش ومروي، ومنهما إلى إثيوبيا، وبعد أن أنهى اجتماعه بالقادة و حدد في عقله خطوات الأيام القادمة أراد أن يعرف أكثر عن تلك البلاد السمراء التي هو قادم لغزوها.. وكان هذا هو وقت الفيضان فقرر إرسال سفينة بها بعض السفراء إلى ملك «كوش» يحملون معهم الهدايا الفاخرة، ويدرسون الطريق و مواطن الضعف في تلك البلاد.. ثم أرسل بعدها يستدعي «وزحاررسن»، وكان بحضرته يومها المعلم «كنترياس» الذي رغم شدة بغضه «لوزحاررسن» إلا أنه يحترم عقله الكبير، وخبرته، ويرى أنه فرصة كبيرة لمعرفة طبائع، وحضارة هذا الشعب، وما يجاوره من بلاد وشعوب لذا سأله في حضرة «قمبيز» قائلاً:

- أتعرف بلاد «كوش» أيها الطبيب المُجرب «وزحاررسن».

تنهد «وزحارسون» وقد أسعده أن يوجه إليه المُعلم هذا السؤال في حضرة ملك بلاد فارس ومصر فقال:

- إنها أرض النوبة بلاد الذهب والكنوز، بلاد الغاب والعاج، وجلود الأسود، والنمور، سماؤها زرقاء صافية، وشمسها نار حامية، رمالها حبيبات تبر، وأشجارها صنت تفيض بالصمغ، زرعها أخضر، مبارك يشرئب من وسطه النخيل ملوحا بالسباطات المثقلة بالبلح، بشرى للآكلين.

- ورجالها..

- سود الوجوه بيض القلوب، أشداء في الحروب، بسطاء في حياتهم، أدقاء في رميهم، يحسنون صنع سلاحهم.. لا يعتدون إلا إذا أعتدي عليهم، حكمتهم مصر قرونًا عندما تفرقوا، وحكموا مصر قرنًا من الزمان عندما اتحدوا.. وتفرقنا..! ثم قويت شوكتنا، فرددناهم إلى بلادهم، ولأن بيننا أنساب ونيل واحد يسري في عروقنا فقد وضع الزمان بيننا جسرًا من المودة و الحب والصداقة، واتصلنا وارتبطنا بقوافل التجارة. لذلك نصيحتي لك يا مولاي إن عزمت على فتح تلك البلاد أن تعتمد على الفرس والبيزنطيين المرتزقة ولا تتخذ من أهل مصر جندًا في تلك المعركة فإنهم لن يقاتلوا إخوانهم، و أن وجدوا الكفة تميل عليك كانوا معهم عليك.

حرك المعلم «كنترياس» رأسه في سرور:

- ما أروع ما قلت أنت حقًا حكيم.

تبسم «قمبيز» وهو يقول:

- إذًا فليكتمل الرباط مرة أخرى أيها المعلم، ولكن تحت حكم واحد، هو حكم« قمبيز بن قورش» سيد العالم.



أدغال القلوب



مازالت العصافير تُزقزق فرحة و قد بَسطت أجنحتها الرقيقة فوق أشجارها مستمتعة بسباحتها في نسيم الهواء، مُعلنة بأصواتها المرحة عن شروق يومٍ جديد..

الفلاحون يبذرون حبوبهم في الأراضي ويضربون بمعاولهم كتلها الطينية الصلبة، وماء النيل يجري بين الجداول والشقوق الصغيرة التي فتحتها فؤوسهم لتسقي الزرع.. من الصباح حتى اعتلاء الشمس للرءوس في وقت الضحى..

«حاروز» يتنقل من شجرة إلى أخرى يجمع التوت البري، يحيا سعيدًا بين الأدغال، وحوله مجموعة من أبناء عمومته مشغولون بقطع لحى الأشجار، وجمع الصمغ..

تبسمت « داشيتا» حين وضع أمامها التوت ورفعت عينيها الشاكرة نحوه، ضحكت الفتايات اللاتي حولها وتخطفن التوت في مرح..

فقال لها «حاروز» مُشيرًا إلى زورقه:

ـ لقد وضعت الشبكة في الماء منذ الصباح..

تبسمت دون أن تلتفت:

ـ أتمنى أن يكون الصيد وفيرًا.

فأسرع وهو يشير إليها أن تلحق به.

- إن أمي تنتظرنا في القصر، وقد خبزت أرغفة شهية وأعدت طعامًا طيبًا «قالت إنه لك.

- إذًا هيا بنا.

قفز «حاروز» داخل زورقه وسحب بهدوء شبكته التي كان قد بسطها في الماء، فتقافز السمك النيلي يحاول الفرار من بين خيوطها الدقيقة، ويرتد داخلها يائسًا..

ضحكت «داشيتا» وهي ترى هذا الصيد الوفير، وساعدته في إفراغه في سلته، وبعد دقائق كان الزورق يتحرك خفيفًا على صفحة النهر و المياه تترقرق تحته وقد لمعت أشعة الشمس بوهجها فصارت كأنها الذهب.

أخذ «حاروز» يجدف بهدوء، ويمر بالقرب من أكواخ الصيادين المتراصة على جانبيه متجهًا إلى قصر حاكم «بلاد كوش» الواقع على مقربة من ضفة النيل وكان مبنيًا من الحجارة المنحوته من الجبال على مساحة شاسعة من الأرض وحوله غُرف للحرس من الحجارة والطوب اللبن غُطى سقفها بسعف النخيل.. يُحيط القصر سور سميك أبيض تُزين جدرانه زخارف بدائية زاهية الألوان.

ربط «حاروز» قاربه في عارضة خشبية أُعدت لذلك، و حيا الحارس البدين «بويا» الذي أشرق وجهه الممتلىء بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الصفراء الكبيرة..

أسرع «بويا» يُفسح لهما الطريق ويفتح الباب الخلفي المؤدي إلى القاعات الملكية الخاصة بنساء الملك، وهو يُحدث «حاروز» :

- أسرع يا سيدي فرائحة الطعام شهية.

- حسنًا أيها العم الطيب سيأتيك نصيبك بعد لحظات.

- هذا حقًا حديث الحكماء.

- ما أحكم معدتك يا «بويا».

- إذًا هيا يا سيدي.. فمعدتي تئن منذ بدأت رائحة الخبز الطازج تصعد إليها.

ضحكت «داشيتا» وهي تدفع أمامها «حاروز»:

- أسرع يا «حاروز» فقد زاد حديثه من جوعي.

وما هي إلا لحظات حتى دخل هو و «داشيتا» القاعة الخاصة بأمه..

كانت القاعة واسعة مرتفعة السقف بها عدد كبير من الحجرات، وفراش بسيط لكنه نظيف وزاهي الألوان، وقد وضعت على الأرض حصير من الغاب المضفور لها أشكال هندسية و ألوان زاهية، وبعض المقاعد المصنوعة من غاب النيل، وفي أحد أركانها كانت تضيء المكان و تدفئه فتحة فرن طيني، و قد شبت النار تحت قدر حديدي، وبالقرب منه تجلس خادمة عجوز تضيف إلى ناره غصنًا صغيرًا أو حفنة من الحشائش اليابسة كل فترة..

استقبلت الأم «بيرما» « داشيتا» في فرح غامر احتضنتها مرحبة، وأمرت خادمتها ببسط فراش كتاني أبيض أمامها، ووضع وسائد قطنية ناعمة ليجلسوا عليها أثناء تناول الطعام.. ثم أتت بخوان عليه أطباق خشبية نظيفة بها أرغفة ساخنة خبزتها من الشعير المطحون، وآنية بها ماء، و طبقًا من العدس وبعض البيض والعجوة، والجبن والعسل، واللبن و تمرًا وتينًا مجففًا، وقطع من لحم الأوز الشهي، وحملت الخادمة طبقًا كبيرًا من الفاكهة وضعته بالقرب منهما.. كانت رائحة الخبز الساخن المصنوع من دقيق القمح تُداعب معدتها الفارغة.. فأسرعت «داشيتا» تلتهم جزءًا من رغيف، وهي تشكر «بيرما» على هذا الجهد وذلك النشاط.

تبسمت «بيرما» وهي تنظر إلى ابنها «حاروز» الذي جلس يأكل بهدوء قائلة:

- لقد عَلمت «حاروز» الكثير من أسرار الطهي لكنه يُحب الصيد، لأنه يُعلمه الصبر.. و هاهو يَغرق في صبره الذي لا أرى له نهاية.

تجاهلت «داشيتا» كلامها فهي تعرف إلى أي بُعد ترمي تلك العجوز الطيبة الوديعة المضيافة، ذات البشرة السوداء اللامعة، والعيون العسلية البراقة الحانية المتطفلة.. تكلمت وهي تُشير نحو العسل:

ـ هذا العسل شهي.

ـ نعم فقد أحضره «حاروز» من شجرة عالية، ونجح في الإفلات من النحل بعد أن نفخ دخان النار في الخلية.. ألم أقل لك إنه يُحسن كل شيء.

بلا وعي التقت عينا «داشيتا» الباسمة بعيني «حاروز» الخجلتين ولم تستطع أن تكتم ضحكة صغيرة.. انفرجت على أثرها أسارير الأم وأكملت:

ـ في كل يوم أحضر له عروسًا، كُلهن من بنات السادة، وجمالهن بلا حدود.. لكنه يُخذلني دائمًا، ويتركني حائرة لا أدري ماذا أقول لأمهاتهن.. و أنا أحلم كل يوم بأولاده كالنسائم الصافية يملأون قصر أبيه الكبير.

أنهى «حاروز» طعامه بسرعة، وقام ليترك لهما المجال قال وهو يفتح الباب:

ـ لقد اصطدت الكثير من السمك اليوم يا أمي سأحضر لكِ السلة لتقوم خادمتك بتنظيفها.. آه كدت أن أنسى أعطني بعض الطعام لـ «بويا» فقد قتلته برائحة طعامك..

ضحكت الأم وهي تضع له بعض الطعام والأرغفة الساخنة في سلة قائلة:

ـ هذا رجل ذواقة يعرف قيمة الطعام الجيد.

راقبته الأم «بيرما» حتى خرج، وقد وجدتها فرصة للإنفراد بـ« داشيتا» قالت وهي تضرب كفًا بكف:

ـ أخشى أن تكون ساحرة قد سحرته، أو غانية قد ملكته..

ثم ثبتت عينيها في عينيها:

- إنه فتى طيب يحمل في قلبه حلاوة الحياة ومرارتها حين أراه من بعيد أظنه سعيدًا، وحين أرى شرود عينيه أعرف أن لديه حُبًا دفينًا.

هزت «دايشيتا» رأسها ولم تقل شيئًا لكنها شعرت بسعادة غامرة بداخلها.

لم تتوقف الأم عن محاصرتها، قالت: لقد عشتِ بيننا صباكِ وقد تعلمتِ الكثير من طباعنا، وكما تعلمين أن المرأة في بلادنا لها مكانة عظيمة واحتراما لا حدود له، حتى أن السيدة المسنة مثلي إذا وقفت بين أناس يتقاتلون فإنهم يلقون بسلاحهم إحتراماً لها« إن حضارتنا قائمة على هذا الاحترام فنحن هنا في مملكة الأم.

- وأنتِ أيتها الأم الطيبة سيدة هذا العالم.

لم تعلق الأم على مجاملتها وبدأت تذكر الماضي لتفتح مجالاً للحاضر قالت:

- لقد أخذت الحروب منا أعز ما لدينا يا ابنتي ولكن الحياة تُطالبنا بالاستمرار كي نعوض ما فات..

في لحظات شعرت «داشيتا» بأن أحزانها تتجدد، و ذكرياتها تتداعى، و أن قلبها مُثقل بالهموم..قالت و قد أحست بمرارة الفراق:

- ما فات لا يعوض يا خالة.

أحنت «بيرما رأسها خجلاً وقد شعرت أنها اختارت المدخل الخطأ نظرت إليها نظرات عميقة كانت عيناها تخترقانها لتكشف ما بأعماقها.. قالت:

- أعرف أنه لا يوجد من أصيب بمصابك، ففقدك لعائلتك ليس فقدًا عاديًا فهم من سادة الأمة، وقادة البلاد ولكن عليكِ أن تزني الأمور بميزانها العادل الصحيح، أيتها المسكينة ليس بإمكان أحد بعث الحياة في الماضي، فأنت من أنتِ بما تتمتعين به من جمال وقوام وشرف ونسب يجعل كل الحِسان خَدم تحت قدميك، فلا تُضيعي زهرة شبابك في الأحزان.. تبسمي للدنيا و ابدئي حياتك من جديد.

جاءها صوت «داشيتا» كتنهيدة عميقة:

ـ كيف أبدأ الحياة من جديد، وأنعم بها.. أبي، وزوجي، و أخي وابني الذي أُجهض وهو في شهور الحمل الأولى.. مازالت دماؤهم تجري وتندفع أمامي كالشلال تطالبني بالانتقام..

رفعت «بيرما» صوتها متعجبة:

ـ مِمَن تنتقمين يا بنتي..!، إنها الحرب خسر فيها من خسر، وفاز فيها من فاز، وصارت حديث الملوك وصراعهم، ومن مات فيها من أهلنا مات شريفًا مدافعًا عن أرضه، في يده سيفه، ولم يولهم ظهره، فلا تُحملي نفسك فوق طاقتها ولا تمنيها بأكثر مما تستطيعين، فأنتِ امرأة ضعيفة وحيدة خُلقت ليسكن إليها زوجها.. فكيف تحلمين أن تنتقمي من أقوى ملوك زماننا.؟!!

نظرت إليها «داشيتا» بعينين ملأهما التحدي:

ـ مازلت أستطيع.. و إن لم أنجح فسألحق بمن فقدت.

جمعت الأم «بيرما» أطباقها لتغسلها في ذهول من خادمتها..!! نظرت نحو «داشيتا» بضيق وقد ملأ صدرها الانفعال، وشعرت بما يشعر به ابنها «حاروز».. قالت دون أن تُخفي صوتها غير مبالية وهي تُحدث نفسها:

ـ مسكين أحب صخرة لا تشعر به..!!

خبأت «داشيتا» ابتسامة ماكرة وأسرعت تخرج من باب الحجرة لتلحق بـ«حاروز» الذي كان قد تعمد البقاء بالخارج أطول فترة ممكنة لعل أمه تنجح في تحريك ما لم يستطع تحريكه من مشاعر طوال الفترة الماضية، وعندما رآها تخرج أسرع نحوها مضطربًا متوتر الأعصاب يراوده الأمل.. لكنه لاحظ الانكسار في نظرات أمه وهي تتابعه من طرف الباب..

توقف حائرًا لكن الحارس «بويا» أسرع نحوهما و على وجهه علامات البِّشر:

ـ سيدي لقد وصل رسول من مصر، ولديه الكثير من الأخبار.

خفق قلب «داشيتا» بعنف، وأسرعت معهما نحو القصر.

رحب «حاروز» بالرسول وأجلسه بجواره وطلب من الحرس أن يحضروا له الطعام والشراب.. لكن «دشيتا لم تطق صبرًا فسألته متلهفة.

- ما الأخبار في مصر..؟ وماذا فعل «قمبيز» بأهلنا.؟ وإلى أي مدى بلغت جرائمه.؟

تبسم الرسول وقد أدرك مدى أهمية الأمر بالنسبة إليها فقال:

- حاول ملك الفرس التبسط، وإصلاح ما أفسده جيشه لكن كاهن معبد آمون بواحة سيوه تكهن بهزيمته فاستشاط غضبا، وأرسل جيشًا عظيمًا قتل الكاهن وهدم المعبد.

انفجرت «داشيتا» صائحة في غضب:

- إلى هذا الحد بلغ إجرامه يتجرأ على هدم المعبد..ألم يكفه قتله للفرعون..؟

نظر «حاروز» للرسول وقد بدأت علامات الاهتمام تظهر على وجهه وقال:

- جيش كامل من أجل هدم معبد.. أليس هذا عجيبًا..

- هذا الجيش استمر في طريقه يا سيدي لكي يُخضع قبائل «لوبيا» لسلطان الفرس.. ومازال في طريقه يقتحم الصحراء.

صمت الرسول قليلاً ثم قال لحاروز في ثبات:

- سيدي.. إن سفراء قمبيز في طريقهم إلينا.. وقد عبروا بالفعل الشلال الثاني، منتهزين وجود الفيضان ليستغلوا النيل في سرعة الوصول وهم الآن عند الشلال الثالث.

- ماذا..؟ وما علمك بما هم قادمون من أجله.

- إنهم يحملون الهدايا إلى ملكنا، ولا تظن أن ذلك بشير خير، فعيوننا تتابع

حركاتهم إنهم يسجلون كل شيء في طريقهم، كان من الممكن أن يصلوا إلينا اليوم لكنهم يحسبون سمك الحصون، ويحصون الحاميات التي على الأسوار، وقد أخر وصولي إليك فضولي في معرفة غايتهم..

تجهم وجه «حاروز» وقال: صدقت، هذا نذير شر، والآن عليك إبلاغ أبي الملك بكل ما عندك..

- إن عيون الملك لم تغفل عنهم منذ ركبوا النيل إلينا.

شكر «حاروز» الرسول وأشار له بالانصراف.

فترك المجلس.. لكن بوادر القلق بدأت تسيطر على «حاروز» تحرك بلا وعي خارجًا من القاعة، وقف قريبًا من القصر يراقب الممر المليء بالأشجار الواصل بين قريته وما يتبعها من قرى.. راح في تفكير عميق ولاحظت «داشيتا» ذلك فأسرعت نحوه.. لم يلحظها..!! كان غارقًا في أفكاره..

ربتت على كتفه فانتبه من شروده.. تبسمت له:

- ماذا بك..؟ أراك ذهبت في عالم غير عالمنا..

- شغلني حديث الرسول..

- إلى أي حد..؟

- يجب أن أذهب إلى أبي الملك فكل بلادنا أصبحت في خطر.

- ماذا تقصد..؟

- إنهم جواسيس والدور علينا.

- كيف..؟

أمسك «حاروز» بقطعة من الحجر الجيري ورسم على حائط قريب خريطة بدائية لوادي النيل ووضع علامة في اتجاه لوبيا وبرقة ثم وضع خطًا فاصلاً في

الجنوب وقال:

- إذا نجح «قمبيز في تأمين مصر من الغرب فلابد أن تكون بلادنا هي الخطوة القادمة فلا يأمن له ملكه، ولا يتم له فتح مصر إلا إذا فتح الواحات الخارجة وقد يتطلع إلى بلاد «بلاد كوش»، و«مروي».. وسيكون هذا هو طريقه لفتح أثيوبيا..

تركته وهي حائرة، حقًا إن الخطر قادم.. وهؤلاء الفرس كالجراد سيهلكون كل شيء في تلك البلاد الطيبة، لن يبقوا أخضرًا و لا يابسا، ولن يتوقف «قمبيز» عن الزحف حتى يحكم العالم.

صمتت « داشيتا» فترة، وأخذت تدور في ساحة القصر، وهي غارقة في أفكارها، و أخيرًا لمعت عينيها بفكرة جنونية فقالت وعلى وجهها نظرة تحدي مليئة بالسخرية:

- صدقت يجب أن نقابل الملك بسرعة.. لكي نُعجل بمجيء «قمبيز» إلينا.

- نعجل بمجيئه.. ماذا تقصدين..؟

- أولا متى يصلون إلى قصر الملك..؟

- إنهم قد اقتربوا كثيرًا ومن المتوقع أن يطلبوا لقاءه مساء الغد.

- حسنًا لدي خطة مُذهلة، يجب أن نناقشها معًا وندرس جميع جوانبها قبل أن نقوم بعرضها على الملك فهي لن تتم إلا بموافقته وتدعيمه لنا..

- أخبريني إذًا ماذا وصل إليه هذا العقل الذي يزينه رأس جميل.

تجاهلت ملاطفته وقالت:

كما أتمنى أن أرى ماذا سيفعل الملك عند لقائه بسفراء «قمبيز» ولكن دون أن يراني منهم أحد.

- حسنًا هذا أمرٌ يسير ستجلسين في مكان يخفى عن عيونهم، وسأحدد مع أبي

موعدًا في الغد بعد انصرافهم..

- كم أشتاق لهذا الغد..!

تبسم «حاروز» قائلاً:

- وأنا كم أشتاق لغدٍ آخر يا «داشيتا»..!

أحنت رأسها خجلاً وأرادت كعادتها أن تغير مجرى الحوار، فقالت:

- ما رأيك أن نذهب إلى «معبد الشمس».؟

- كما تشائين، وهي فرصة فاليوم يُعدون «مائدة الشمس» في الساحة القريبة منه..

سرت موجة من الفرح في قلب « داشيتا» وانطلقت معه، فهي منذ شبت على هذه الأرض لم يفتها المشاركة في إعداد مائدة الشمس، تلك التي اشتهرت بها مدينة «مروي» في بلاد كوش فإن أغنياء البلدة كانوا ينصبون في مرج فسيح خارج المدينة مائدة عظيمة، يظلون طوال الليل يجهزونها، ويضعون عليها ما لذ وطاب من أطايب الطعام، فيؤمها نهارًا كل من شاء من الفقراء، كما كان بعضهم يضع للفقراء « العُمرة» وهي أوعية مصنوعة من سعف النخيل بها كمية من القمح وزجاجة مليئة بزيت الطعام.. يأخذها الفقراء معهم لتكون خزينًا لبيوتهم بعد أن يشبعوا من طعام المائدة.

أسرعت مع «حاروز» في شوارع وطرقات مدينة «مروي»، أخذت تتبعه في خفة وصمت مثل ظله.

كانت الحركة لا تتوقف، فكلما مروا على بيت من بيوت الأثرياء وجدوا أواني وقدور الطعام يحملها الخدم، ويساعدهم في حملها أسيادهم، الكل في طريقهم إلى «مائدة الشمس» تبسم «حاروز» وهو يشد على يد «داشيتا» لتسرع معه قائلاً:

- هيا لنشاركهم عملهم، ونجهز معهم مائدة الفقراء..

ـ ما أبسط الحياة هنا، الناس تحيا في تكافل عجيب، لاشيء يعكر صفوهم سوى ما يخبئه القدر، من طموحات و أطماع غيرهم فيما لديهم.

حمل «حاروز» جرة من العسل ووضعها على المائدة وهو يقول:

ـ لقد علمني أبي الكثير من طرق المعاملة، والحكم رغم أنني أصغر أبنائه، وهو دائمًا يقول عن كل غريب يأتينا.. إن كان ضيفًا فهو آمن، له عندنا أكثر مما نعطيه لأبنائنا، وإن كان طامعًا، فليس في الأمم من يستطيع استخدام السهام والأقواس مثلنا.

مر الوقت سريعًا، كانت البهجة، تعلو الوجوه.. حتى صارت المائدة الضخمة عامرة بكل أنواع الطعام والشراب، وحولها أوعية، وأجولة القمح، الكل جاد بما عنده، وانسحب الجميع بهدوء دون أن يأمرهم أحد بشيء، ذهبوا كما جاؤا، وتركوا المائدة أمام المعبد وحدها في الليل.. ليجتمع حولها الفقراء صباحًا عند أول ضوء للشمس، يأخذ كلٌ منهم حاجته منها، دون خلاف، أو شجار، أو تحكم من أحد..

أما «داشيتا» فقد تركت «حاروز» بعد أن ودعته ببسمة رائعة أشعلت ما تبقى من حبٍ في فؤاده، ودخلت إلى حجرتها وهي تعرف أن النوم ليس له سلطان عليها الآن ومع ذلك كان الجو هادئًا ونسمة الجنوب تهب دافئة.. ظلت طوال الليل ساهرة تسامر القمر الذي بسط ضوءه على الكون، وتصارع ضوءه مع الأضواء المنبعثة من الحوانيت والنوافذ، وقد نام أهل القصر، وهجعت البلدة، إلا من صوت كلب ينبح هنا أوهناك وحينما تسللت تحت الغطاء لم تستطع إلى النوم سبيلاً، كانت الأفكار تتلاحق في رأسها كالأمواج المتلاطمة، وخطتها تكتمل في رأسها شيئًا فشيئًا.. وبقيت طويلا ساهرة مسهدة، ولما دب النوم في عينيها ألم بها يسيرًا متقطعًا، كانت الكوابيس تتصارع فيه.. رأت كل من رحلوا يتعلقون بها، يطالبونها بدمائهم التي كانت تسبح فيها بلا طوق نجاة.. ولما رأته وجدت الخلاص في عنقه، ولم تكن تملك إلا أظافرها.. فنشبت أظافرها في عنق «قمبيز».

ملك بلاد كوش



أشرقت شمس يوم جديد على قصر الحكم في بلاد كوش، فأضاءت بستانه الرائع الذي تحيطه الأشجار العالية من جانبيه، وكان القصر متعدد الحجرات، تزين جدرانه نقوش اختلطت ما بين النقوش الفرعونية والأشكال البسيطة البدائية،زاهية الألوان وكثرت به التماثيل الصغيرة التي تزين الأعمدة الحجرية الطويلة.

وقف عند الأبواب، وبجوار الأعمدة، وحول كرسي الملك بعض الحرس الأقوياء يحملون الرماح، والأقواس، وتلمع على ظهورهم كناناتهم المكتظة بالأسهم الدقيقة الصنع، بينما غاصت قاعة العرش بالناس، من قبائل نوبية مختلفة، تتراوح وجوههم بين السمرة اللامعة، واللون الأسود الفاحم، بعضهم يرتدي الملابس البيضاء الفضفاضة، وآخرون يرتدون ملابس زاهية الألوان، وجوههم صافية، ويضحكون بصوت مرتفع تلمع معه أسنانهم البيضاء، والصفراء القوية المكتملة.. وقد فُرشت لهم أبسطة يجلسون عليها ووضع فوقها وسائد ومتكئات كثيرة وجميلة الشكل، ومطرزة بخيوط الذهب، بينما كثرت حولهم أطباق الفاكهة، والشراب. وبالقرب من العرش كان يجلس كاتب الملك، ومدون رسائله أمام مائدة خشبيةوهو متكيء بذراعه على بعض أوراق البردي، يكتب رسالة و يأخذ الحبر من محبرة مصنوعة من الأبنوس بواسطة قلم

بسيط من البوص.

عند دخول الملك « نستاسن » إلى القاعة هدأت الأصوات، وترجل القوم، لكنه أشار إليهم مبتسمًا ليستمروا، في أكلهم ومسامراتهم، و تقدم نحو عرشه، حتى إذا استوى عليه ناقش أحد كبار قادته في بعض الأمور ثم نادى على حاجبه وسمح له بأن يُدخل سفراء ملك فارس..

تقدم السفراء، وهم يحملون الهدايا المصرية الصنع و بعض النسيج والجواهر من بلاد فارس، لكنهم تعجبوا لما وجدوه من بساطة القوم، وجلوسهم في حضرة ملكهم، فزاد يقينهم بأن مهمتهم قد نجحت، وسيحملون إلى ملك الفرس الكثير من البشائر، عن بساطة الشعب وسهولة هزيمته.

وعلى الفور انحنوا بين يديه وقدموا له الهدايا قائلين:

ـ أيها الملك المعظم ملك بلاد كوش إن «قمبيز» ملك الفرس أراد أن يكون بينك وبينه مودة و إخاء.. فأرسلنا إليك بهذه الهدايا السارة، وقد وجدنا، من كرمكم الكثير، حتى إننا لنطمع في أن نبقى في ضيافتكم أيامًا نتعرف فيها على حضارتكم.

كانت «داشيتا» تراقب من مجلسها البعيد عن عيونهم ما يحدث، وقلبها يتقافز فزعًا، وهي تخشى أن يستطيعوا خداع الملك، لكن حاروز الذي كان ما يزال قريبًا منها، قال لها:

ـ اطمئني فكل التقارير قد وصلت إلى الملك، وهو يعرف الآن لماذا جاءوا وهو قادر على وقف طموحهم.

نظر إليهم « الملك نستاسن » ملك النوبة متعجبًا وكأنه يراقب ما في نفوسهم، ويرى ما تنطوي عليه أفئدتهم من خداع، وقال وهو يرفع ذراعه القوي مشيرًا نحوهم: ليس حب المحالفة هو الذى حمل ملك الفرس على إرسالكم إلَيَّ بهذه

الهدايا، ولا أنتم تقولون الحق، ولا ما تقولونه عن أنفسكم وعن قوتكم، وعن عدل ملككم، صحيحًا ولو كان ملككم مستقيمًا عادلا لما طمع في أرض ليست ملكه ولا فكر أن يستعبد أناسًا لم يسيئوا إليه أو يخطئوا في حقه..

ولكنه إنما طمع فى بلادى، وأرسلكم لتتجسسوا، وتعرفوا أخبارها..

صمت الملك للحظة وهو يراقب أثر كلماته في عيون رسل «قمبيز» ولما شعر بأنهم مازالوا يحتفظون بشيء من غطرستهم، قرر أن يعطيهم درسًا، فأخذ قوسا ضخمًا ووتره أمامهم بقوة، ودقة أذهلتهم، ثم حله في لحظات ودفع به لجواسيس قمبيز وهو يقول لهم:

ـ خذوا هذه القوس إلى ملككم وقولوا له أن ملك كوش، ومروي بل ملك الأثيوبيين جميعًا الذي يستطيع أن يستنفر منهم مأتي ألف بإشارة من يمينه ينصحه بأن لا يأتي لحربنا إلا بعد أن يصبح جنوده قادرون على وتر هذا القوس بتلك القوة، وليتذكر ساعتها أن يأتيني بجيوش أعظم عددا من جيوشكم..

شعر الرُسل بالفزع يدب في قلوبهم، لكن كلماته الأخيرة ملأتهم رعبًا حين رفع صوته جهوريًا وهو يقول:

ـ وليقدم «قمبيز» الشكر لآلهته على أنه لم يضع في قلوب الإثيوبيين الطمع في بلاد لا يملكونها و إلا لوجدنا عنده في فارس منذ زمان بعيد.

أشار الملك إلى بعض رجاله، ليصحبوا الرُسل إلى خارج قصره، وهو يقول:

ـ أما الهدايا فلا نقبلها إلا من نفوسٍ صافية، وهذا ما لم نجده في سلوككم في بلادنا، فخذوها وانصرفوا.

حمل السفراء هداياهم، وهم في فزعٍ شديد.. وخرجوا من القصر وهم صاغرون.

وقفت « دايشيتا» متعجبة وهي ترى ما حدث بعينيها وما سمعته بأذنيها، ولكن

انبهارها غطى دهشتها، إنه حقًا ملك عظيم، إن رأيت بساطته، لم تدرك حجم قوته..

أقترب «حاروز» من أبيه الملك «نستاسن» وبعد أن أدى التحية، وقَبل الأرض تحت قدميه قال له:

- لقد علمت يا أبت هؤلاء الجواسيس درسًا لن ينسوه، ولكنك بذلك أشعلت غضب «قمبيز» وغروره و ما أظنه إلا قادمًا بجيشه عن قريب.

استطرد الملك قائلاً:

الغاضب لا يُحسن الاستعداد يابني، كما أن الفيضان سيتوقف عما قريب، ويصبح وصوله إلينا بجيشه عسيرًا عبر الشلالات الخمس.. ولن يكون أمامه إلا الصحراء والواحات، وأيامًا طويلة ليأتي إلينا.

- يالك من حكيم يا أبي.

- يا بني إننا لم نكن يومًا قساة نطمع فيما يملكه غيرنا، ولكن إذا أُعتدي علينا فنحن الأسود في عريننا.. وقد كان أجدادنا من ملوك النوبة إذا تمكنوا من أعدائهم عفوا عنهم، فإن قوتنا لا نسخرها إلا في الدفاع عن بلادنا وكل الحروب التي خضناها كانت فقط لصد الجيوش الغازية لأرضنا.

- نعم يا أبي لقد سمعت أن جدك ملكنا العظيم «بعانخي» الذي حكم الشمال والجنوب، وساد النيل كان يوصي جنوده قبل كل معركة قائلاً: «إذا سلم لكم أحد الرؤساء فلا تقتلوه لأن ذلك أمر مذموم».

لاحت على وجه الملك ابتسامة، و هو يتذكر أمجاد أجداده الفراعنة السود الذين حكموا الشمال والجنوب وأسسوا في مصر الأسرة الخامسة والعشرين وقال:

- إن ملك نبته «بعانخي» العظيم لم يكن يهاب مواجهة عدوه و لا يعرف الغدر، فقد قال يوصي جنده قبل المعركة قائلاً: «لا تهاجموه ليلاً هجوم المخادعين

بل هاجموه متى رأيتم أنه أعد جيوشه وخيوله وسار إلى قتالكم»، وقد كُتب في حجر نبتة الذي سجل عليه أمجاده «أن الملك النبتي «بعانخي» عندما وصل بجيشه إلى مدينة منف المصرية خاطب أهلها: «لا تقفلوا أبوابكم دوني ولا تحاربوني فأنني سأدخل مدينتكم وأخرج منها ولا أسئ إلى أحد».، وكان كلما مر بمدينة وقد أقفلت أبوابها يدعوها للتسليم فتسلم فيدخلها ولا يقتل من أهلها أحداً».

تذكر «حاروز» ما جاء من أجله، وقال للملك:

ـ إن « داشيتا» ابنة كاهننا الأعظم «بانيحور» جاءت تعرض عليك أمرًا، سيفيدنا في حربهم، ويحقن الكثير من الدماء..

لاحت على وجه الملك علامات الحزن وتذكر الكاهن«بانيحور» الذي كان صديقه وما حدث له هو وابنه.. و قال:

- إنها عظيمة ابنة عظيم ، وإن كانت قد فقدت أهلها جميعًا إلا أنها ربحتهم أيضًا جميعًا فالأبطال الشرفاء يبقون وسامًا على صدور أبنائهم.. ثم أشار لديشيتا بالاقتراب..



الاتفاق



في مجلسه شعر « قمبيز » بموجة من الغضب تجتاحه، أخذ يدور في القاعة مفكرًا.. بينما وقف أمامه «وزاحررسن» مطمئنًا وهو يداعب بطرف خنجره رأس الوزير «ميجا» المقطوع والذي جاء به أحد أفراد الجيش فوق درع فضية، نظر إليه وعلى وجهه ابتسامة الرضا فهاهو قد استراح أخيرًا من عدوٍ كان يتهدده.. كما جاء هذا الجندي بالكثير من الأخبار السارة.. أخبار الانتصارات.. فهذا الجيش الذي هدم معبد آمون، وقتل الكاهن اللعين قد استطاع أيضًا أن يُخضع «لوبيا» كلها وبرقة« لسلطانه، وهاهو جيشه مستمر في تأمين حدوده وفتح البلاد..

راقب «قمبيز» الرأس المقطوع بضيق.. همس لنفسه:

ـ الخيانة حولي في كل مكان..

ثم التفت نحو «وزاحررسن» وقال لكي يُطفيء فرحته:

ـ ارفع خنجرك عنه، فقد يُصبح غدًا رأسك مكانه..

تجمدت أطراف «وزاحررسن» من الرعب للحظات، ووضع يده على عنقه في فزع.. فتبسم «قمبيز» وهو يُكمل كلامه:

ـ لقد أصبحت أرى هذا المصير كثيرًا فاحرص على طاعتي لكي لا تصل إليه.

كان هيكله الداخلي يتأزم و يتقزم..

قال في شيء من التوسل.

- مولاي أنا خادمك المطيع.

- تعني الغبي يا «وزاحررسن»..!!

- ماذا تقصد يا مولاي..؟

- بالأمس كان مكان هذا الرأس رأسٌ آخر..

- رأس من..!!

- رأس «تبترو».. تلك الوصيفة المخلصة التي وضعتها لتُحصي لك أنفاس الملكة «نتيتس».

انتفض «وزاحررسن» وخفق قلبه بعنف ثم همس قائلاً:

- «تبتروا» كشفتها الملكة..؟!!

- نعم لكنها كانت أكثر منك إخلاصًا، لم تبح باسمك، وفقدت رأسها ثمنًا..و من الآن عليك الحذر ف «نتيتس» لا تعفو، وهي ليست بحاجة إلى دليل يجعلها تشك فيك..إنها تستمتع بهذا الشك الذي ينمو بداخلها كل يوم.

تماسك «وزاحررسن» رغم كل ما يفور بداخله من انفعالات، فهو يعرف مدى كره الملكة له.. أسرع لُيغير موضوع الحديث وقد اصطنع إحدى ابتساماته الهادئة ورفع يديه بطريقة استعراضية قائلا :

- مولاي لم يحتفل بعد بنصره الكبير.. فاخضاع لوبيا وبرقة وضمهما لملكه ليس بالشأن الهين، وعلى الجميع أن يهتف له، وتمتلىء البلاد بالعازفين والراقصين، ويشرب الجميع من نبيذ بلاد فارس المعتق.

ضحك «قمبيز» متجاهلاً حديثه وهو يُشير لبعض جنوده قائلاً:

- ادفنوا هذا الرأس، وأرسلوا من يُحضر لي المزيد من أخبار الفتح، فلم يعد يسرني شيء سوى أن أكون سيدًا لهذا العالم.

«نتيتس» لا تعرف الراحة، فلم تكن تحلم بما ادخره لها القدر، إنها امرأة خلقت للعرش.. فها هي توطد مُلك آباءها من جديد، و تصنع التماثيل لهم، تأمر الكتبة بتدوين ما قاموا به من انتصارات، تُسجل تاريخهم ومعاركهم.. تعيد كتابة إنجازاتهم في البرديات وعلى قبورهم بعد أن محاها «أماسيس» الغادر و سجل الكثير منها على اللوحات الجدارية الضخمة بأنها إنجازاته هو.. تشتري الجند و الكثير من العبيد، وتدربهم على حمايتها..!! تتعامل مع مصر كأنها لها وحدها.. نسيت أن «قمبيز» هو الفاتح الأعظم، والملك الحقيقي لهذه البلاد.. لم تعد تستشيره في شيء، تتحرك في كل مكان وتعيد البناء بسرعة و قوة الذهب الذي تملكه..أما هو فهي تعرف أن صبره قد نفذ و لا شيء بعد اليوم يمكن أن يرغمه على تحمل طموحاتها.. لذلك بدأت تتحرك بخطوات سريعة، فهي تُدرك بفطرتها الخطر القادم وهي تراه وقد ازدادت عليه نوبات الصرع، حتى لم تعد سرًا يختبيء، في قصرٍ تفتحت جدرانه أفواهًا..!!

وبعد هدمه لمعبد آمون زاد حقد وكره شعبها له، بل هي نفسها لم تعد تراه إلا متكبرًا في طريقه إلى نهايته، قلبها بركان تتقلب به الحمم، لم تعد تدرِ وهي ترى من نظراته الخالية من العاطفة نحوها، كم تبق من حبه في قلبها، وكلما رأته في ضعفه ومرضه أسرعت بلا وعي نحوه حتى تفوز باحتوائه فيكون ملجأه أحضانها.. إنها تحبه بكل كيانها فهو وحيدها وثمرة عمرها، ربته على أن يكون أقوى الرجال، و أحكمهم، و أكثرهم توحدا معها، فمابالها اليوم لا تجده قريبًا منها إلا في ضعفه.. تمنت أن تُهزم جيوشه، و تنجح الثورات ضده في فارس، فلا يجد مكان له إلا مصر حيث يكون سلطانها هي قد امتد، فيحيا في حمايتها بدلاً من أن تنتظر أن يُطيح بها في غضبة من غضباته.. وبدأت تداعبها أحلامها، تذكرت « توزوي» تنهدت :

ـ آه لو كان حيًا لأجلسته بجواري على هذا العرش، فهو قائد عظيم ومحبوب المصريين، و محبوبي الذي فقدته مرتين.

في كل مكان تسير فيه، ومع كل خطوة تخطوها، كانت هناك عين من عيون «وزاحررسن» تتبعها، وتسجل التقارير، بينما في كل ليلة كانت خطة من خطتها لقتله تفشل، فهو يُنفق على حرسه أكثر مما يُنفق على بيته وملذاته، إنه نموذج للرجل الموغل في صبره المتحمل لكل شيء والذي لا يقنع بشيء، أما هي فتتقن كل فنون الدهاء، وتحسب كل خطوة تخطوها، وتعرف متى تكون أمًا ضعيفة، ومتى تُصبح ملكة عنيفة.



اختفاء جيش «قمبيز»



مرت الأيام وطال الانتظار، ولم تعد رسائل الفتوحات تصل إليه.. ران الصمت على كل شيء، وأخيرًا أرسل من يستقصي الأمر.. وكانت المفاجأة..؟

عاد الجنود يحملون الجندي الجريح الوحيد الذي نجى..

هتف بلا وعي:

ـ ماذا تقول..؟!! هل يمكن أن يختفي من علي وجه الأرض جيش كاملٌ قوامه خمسون ألفًا من المقاتلين الأشداء تبتلعهم رمال الصحراء..!! هل جننت كيف تريدني أن أصدق هذا..

أحنى الجندي الجريح «ديماكوس» رأسه وهو يقول:

ـ ولكنها الحقيقة يا سيدي.. لقد اختفى الجيش بعد أن حقق أحلامه في الفتح وتأمين البلاد..!!

ـ كيف؟ أخبرني بسرعة كيف حدث هذا؟

كنا نجلس للراحة ساعة الغذاء، وكان بعضنا يستظل بجوار هرم حجري ضخم، قريبًا من منطقة تسمى بحر الرمال الأعظم.. نظرنا جنوب الوادي في فزع عندما شعرنا بظلمة عظيمة تجتاح السماء خلفنا، وفجأة هبت علينا ريح عاصفة، تاركة خلفها صرخة عارمة، اجتاح الذهول الجميع، وفي لحظات تزايد الاضطراب،

وعلت الصرخات، وأسرعت الحمير والخيول في الهرب، وهي تجرجر أحمالها، كانت مجرد لحظات خاطفة، غطانا بعدها المجهول لم يكن هناك وقت للفرار، لم يكن باستطاعتنا حتى التنفس بعد أن امتلأت أفواهنا وعيوننا بالرمال، و اختفت صرخات الجند وسط زئير الريح..لم ينج أحد ياسيدي.. لم ينج أحد.

كان العرق يتصبب من كل جزء في جسم الجندي «ديماكوس» الذي ظل يعاني شهرًا كاملا من هيستيريا وفزع فقد وجده بدو الصحراء بعد أيام من العاصفة وهو مازال يتنفس وقد غطت الرمال أغلب جسده.. أكمل حديثه في رعب وهو يرى « قمبيز» الجامد في مكانه كأنما أصابته صاعقة:

- مولاي إنها العواصف الرملية المهولة في الصحراء الغربية.. العواصف التي تأتي من المجهول، وتحصد كل شيء في طريقها.. العواصف التي لا تستطيع أن تفعل شيئًا عندما تراها سوى أن تموت.

خرج الجندي « ديماكوس» من عند قمبيز، وهو يحمل على صدره بعض الأوسمة؛ لأنه الناجي الوحيد في معركة فاصلة، معركة فاصلة بين الحياة والموت.. أما «قمبيز» الذي نزل عليه الخبر نزول الصاعقة، كاد عقله أن ينفجر كيف يمكنه تصديق ما حدث.. بكل بساطة يفقد جيشًا عظيمًا كهذا.. لكنه تحدي الطبيعة برمالها المتحركة وعواصفها الهوجاء.. أخذ يدور في القاعة الملكية وسط فنائها المحاط بالأعمدة المطلية بالألوان والرسوم الفرعونية التي تحكي الأمجاد..

أفاق من ذهوله على الجلبة التي أحدثها دخول الملكة «نتيتس» إلى القاعة..

قال وقد شعر بطعم المرارة في حلقه:

- «إذًا فقد انتقل خبر الجيش المفقود، انتقل في طرقات منف وطيبة كما ينتقل الهواء العاصف الملوث بالغبار».. وهاهي عظيمة قومها جاءت لتدلي بما لديها من أحقاد..

جلس على أقرب كرسي واستعد لمواجهتها..

دخلت منتفخة و منتشية زاهية الألوان كطاووس اكتسب المزيد من الريش.. وعيناها تبحثان عنه وتتجهان نحو كرسي العرش.. وجدته قريبًا منها في بهو الأعمدة... اصطنعت على الفور الحزن، وكست وجهها بدموع مزيفة.. ارتمت عليه صارخة صاحت بدهشة مصطنعة:

ـ ماذا حدث يا بني.. أي غضب قد أصاب جيوشك.. أي روحٍ خفية قد أخذتهم معها إلى الأعماق..

علت الحمرة وجه «قمبيز مثل نيران الحريق، وقد ثارت كل الدماء التي في عروقه دفعها بيده بعيدًا عنه كعادته، وقال بصوت مخنوق:

ـ جئت نادبة مواسية أم متشفية..؟

ـ متشفية..!! لماذا.. أنت ابني ونصرك نصري وهزيمتك تقصم ظهري.

ـ كنت أعتقد هذا قبل أن نصل إلى هذا البلد.. فلتكوني واضحة معي فقد سئمت من ألاعيب أعرف آخرها.

جلست «نتيتس على كرسي وثير من الخيزران بعد أن أحكمت على قاعدته الوسائد الحريرية الممتلئة بريش النعام.. تحدثت ببرود:

ـ أما آن الأوان أن تُكفر عن خطئك الأعظم.؟

ـ خطئي الأعظم،.. خطئي الأعظم أنتِ أعرف الناس به.

ـ لم أقصد هذا، وإنما قصدت هدمك لمعبد الإله آمون، وقتلك لكهنته..

ـ وما علاقة هذا بما أنا فيه الآن.

ـ إنها لعنته تلاحقك و إذا لم تقم على الفور ببناء معبده والتقرب إلى كهنته فأنا لا آمن العواقب..

قام «قمبيز» من مكانه، متجهًا إليها، ونظر في عينيها بقوة وتحدٍ قائلاً:

- هل تظنين أنني أخشى تماثلك العتيق وكهنته الملاعين، إنهم لا شيء، لو كان إلهاً لأنقذ معبده الذي أصبح كومة من التراب، و قد أدى الجيش بعدها دوره في تأمين البلاد، و ما أهلكه هو العواصف ورمال الصحراء.

ارتفع صوت نيتيتس مدافعة عن آلهتها:

- أية عواصف وأية رمال إنها لعنة آمون قد لحقت بك، فلا يأخذك الغرور فلكم أسقطت قطرات المطر من صروح شامخات..!!

نظر «قمبيز» من شرفة القصر وهو يُشيح لها بيديه ويشير إلي تلك الاحتفالات التي تملأ المدينة، أضواء المشاعل التي تحيط بيوت الفلاحين على ضفاف النيل وقال غاضبًا:

- انظري إلى قومك إنهم فرحون يحتفلون بفقدي لجزء هام من جيشي، يعتقدون أن في ذلك هزيمة لي، سأريهم الآن ماذا يفعل الأسد الجريح.

انتفضت «نتيتس» في رعب وخفق قلبها بعنف وهي تتعلق به:

- لا انتظر.. هذه الاحتفالات لا علاقة لها بك فهم لا يعرفون شيئًا عنك ولا عن جيشك المفقود، إنهم البسطاء، يحتفلون بروح الإله التي حلت في العجل «أبيس» الذي ولد منذ أيام، فصار رمزًا للخصب والنماء..

- البسطاء.. الخاضعون للتقاليد القديمة الفاسدة، مازالوا يخافون ما صنعوه بأيديهم من تماثيل و رموز وما عبدوه من حيوانات، لا تعرف غير الرعي والكلأ، رغم ما تفتحت به عقولهم من أضواء الحضارة.

- أحذرك من التعدي على عقائد قومي..

لم يستمع إليها، دفعها بعيدًا عنه، واستل خنجره وهو يصفع الباب خلفه..

انطلقت العجلة الحربية وعليها «قمبيز» وخلفه مجموعة كبيرة من القادة.. وفي دقائق كان يقترب من احتفالات الفلاحين..

كانت البيوت المبنية من الطوب اللبن والتي تحيط جانبي النهر، قد علت فوقها المشاعل فأصبح الليل نهارًا، واجتمع الكهنة والبسطاء من الفلاحين والعمال والصُناع يحتفلون حول الأضواء، وقد وضعوا العجل «أبيس» على محفة ضخمة، وزينوه بالزينات، ووضعوا حوله القرابين، و ارتفعت أصوات الطبول والدفوف، وترنمت المزامير، وفاحت روائح البخور، فملأت الأنوف.. واشتعل المكان برقصات الشباب، وأغانيهم و ترانيمهم التي كانوا يُنشدونها خلف الكهنة.

اقتحم «قمبيز» بعربته الحربية وجنده الاحتفال، فدب الفزع في القلوب، وفرقت العربة الجمع، والتف الكهنة حول العجل «أبيس» ليحمونه بأجسادهم عند رؤيتهم لنيران الغضب التي ظهرت على وجه «قمبيز» وهو يتجه بعربته نحوه.. وفي لحظات معدودة كان يدفعهم من حول العجل وخلفه جنودهم يذيقونهم الموت بصليل سيوفهم.. وهجم «قمبيز» بخنجره على العجل «أبيس» وضربه عدة ضربات قاتلة.

انطفأ بعدها غضبه، وانطفأت معه فرحة البسطاء، وتدفقت دماء «أبيس» مختلطة بمياه النيل.



البركان الخامد



مرت أيام عصيبة، على قصر الحكم لم تعد تهتم «نيتيتس» الأم بأن ترى ولو شبح حنان نحوها يومض في عيني «قمبيز» كما كان عهدها السابق معه، حتى أوقاته التي كان يصاب بالصرع فيها تعمدت ألا تكون بجانبه حاولت أن تتجاهله كما يتجاهلها بينما أسرعت وبكل قوتها في إتمام ما بدأته من تأمين ملكها وزيادة سطوتها، وشعرت أخيرًا أن الأرض صلبة تحت قدميها بعد طول تشرد وضياع، ولكن ما كان يقلقها هو أن غضبه وثورته تحولا فجأة إلى هدوء وتخطيط، إلى عالم حرص ألا تكون هي فيه.. وطموحاته نحو الفتح وتوسيع البلاد صارت بلا حدود، واشتعلت نيرانه بعد عودة سفرائه وجواسيسه من بلاد كوش وقد زودوه بكثير من المعلومات عن حضارة النوبيين وبأسهم، وقصوا عليه كل ما رأوه وسمعوه من ملكهم، فغضب غضبًا شديدًا من تحدى ملك كوش وسخريته، و أمسك بالقوس الذي أرسله له هازئًا وهو يضحك في سخرية:

- قوس ووتر، حسنًا هل هذا هو كل ما يحسن العجوز وقومه..

ألم يُعلمه أحد من هو «قمبيز»؟؟ وكيف تندفع جحافله الجرارة حاملة للموت، وواثقة من الفتح.. ألم يخبره أحد أن قوة الانطلاق مرهونة دائمًا بالزمان وبالمقدرة.. حسنًا لقد آن الأوان أن يتعلم شيئًا جديدًا.، وأن يدفع ثمن جهله.

لكن المعلم «كنترياس» لم يغفل لما وراء رسالة ملك كوش من تهديد حقيقي، بل أمسك بالقوس والوتر وتأملهما طويلاً ثم التفت إلى «قمبيز» بابتسامته الهادئة قائلا:

- ياله من قوس.. لو وضع مثله في يد ألف جندي يحسنون استعماله فكم من الخسائر سنفقد إن أطعنا غرورنا..

أنطفأ غضب «قمبيز» لوهلة وعلت وجهه الدهشة ونظر نحو معلمه الذي أكمل حديثه في صرامة عرفها فيه منذ صغره في لحظات الشدة قال:

- لا تستهن بالعجوز، ولا تغرك بساطته، ولا بدائية قومه فأرضه وعرة تحيطها صحراء قاسية من جهة، ونهر عظيم من جهة أخرى لا تستطيع اختراقه إلا بعد عام حين يأتي الفيضان فيقل خطر شلالاته الخمس على سفننا.. كما أن رجاله البسطاء كوتهم الشمس و جففت عودهم، ولا يرون غيره ملكًا يؤمنون به ويقدمون رقابهم فدائه.

داعب «قمبيز» لحيته وقال:

- كل هذا لا يعطيه القوة ليتجرأ على السخرية مني فإن كان عنده هؤلاء فعندي من جحافل الجند ما لا يطيق.

- لم أقصد أن أقلل من عظمة ملكك وشجاعة جندك يا بني ولكني أردت أن أنبهك إلى دقة صنع هذا القوس قوس صنعته يد من حديد، وعلى جندك أن يأخذوا بنصيحة العجوز ويخشوشنوا ولا يركنوا إلى ما أمدتهم مصر من رفاهية فأمامهم حرب عاتية ورماح كالأمطار وجند ابن قوش ليسوا أقل من أن يكونوا رعد السماء وصواعقها على أعدائه.

تبسم وقد أدرك ما يعنيه معلمه وعلى الفور أرسل إلى «رامون» أحد كبار قادة جيشه وأشرسهم ليقسوا عليهم في التدريب، فأعلن «رامون أنهم أشد الجنود وأنهم جاهزون في أي لحظة لقتال طويل.. فأعطاه العود والوتر وطلب من أن يصنع قوسًا ويوتره أمامه.. وحينما عجز «رامون» الشرس تعلم «قمبيز» ألا يستهين بكلمات الملك العجوز.. و أمره على الفور أن يحضر لجنده بعضًا من الإثيوبيين الأشداء ليعلموهم صناعة الأقواس والرماح، وفن الرماية بهم.

الوفد القادم من الجنوب



امتدت أشعة الشمس الدافئة إلى أحضان أرض «منفيس» الطيبة، وتراقصت نباتات البردي على صفحة النيل هناك بالقرب من القصر الكبير.. بينما اتكأ «قمبيز» على أريكة ناعمة وهو يراقب من شرفة قريبة السماء الصافية والنخيل المرتفع المثقل بالبلح الأحمر.. إنها المرة الأولى التي يُطيل فيها زمن البقاء والاستقرار، ويتوقف فيها عن الاندفاع في فتح البلدان، وكأن تلك الأرض تدعو من فيها إلى الاستقرار، والثبات، وتشعره بالأمان.. لكن هيهات فمازال العالم واسعًا فسيحًا، وطموح الملوك بلا حدود..

أفاق من شروده على اقتراب حارسه طالبًا السماح لوفد من النوبيين بدخول القصر والمثول بين يديه..

أشار له « قمبيز» بالموافقة، وقام معتدلاً واتجه نحو قاعة العرش.

تقدم الوفد النوبي من باب القصر الكبير يحملون الهدايا الفاخرة وصناديق الثمار وجلود النمور، وقطع العاج المزينة بالنقوش المنحوته عليها، فَفُتحت لهم الأبواب، وأفسح لهم الحرس المجال فدخلوا في خطى واثقة حتى وصلوا إلى قاعة العرش حيث جلس « قمبيز» وعلى رأسه تاجه في شموخ، فأحنوا له الظهور، وقبلوا الأرض تحت أقدامه، فأشار لهم بالوقوف، وأن يتقدم كبيرهم، فتقدم أحدهم، وكان شيخًا بدينًا قد زاد بياض شعره

المتجعد من هيبته، وكست ابتسامته الهادئة العريضة التي تظهر منها أسنانه الصفراء الكبيرة ملامح وجهه بطيبة مألوفة.. قال على الفور:

ـ أيها الملك المعظم «قمبيز بن قورش الكبير» الذي عم ملكه الدنيا وفاضت جيوشه كما يفيض النيل، فدانت له الممالك، وخضعت لحكمه الرقاب.

تبسم «قمبيز» لكلماته و استحسن أدبه و أشار له أن يُكمل فقال:

ـ مولاي.. لقد جئنا إليك عشرون من أبناء بلاد «كوش» المقيمين في الواحات بالقرب من الحدود، المتنعمين بخيرك، المتأملين في عظمتك، ومعنا امرأة واحدة هي ليست كأي امرأة فهي سيدتنا، وهي كاهنة مرموقة، وابنة كاهن، وساحرة، و أخت ساحر، وطبيبة، وكانت زوجة طبيب، ولها مهارة لا تُبارى، في علوم الطب و أسرار الأعشاب، وفي كل هذا ما يدل على حكمتها ومكانتها بيننا.

قاطعه «قمبيز»:

حسناً وما سر زيارتها لنا.؟

ـ لقد جاءت تحمل الهدايا، وتطلب سعة صدرك في سماع خطة هي من بنات أفكارها، أرادت بها أن يأمن بنو جنسها و أهل بلادها غضبك، ويكونون عونًا لك على عدوك.

امتلأ عقل «قمبيز» بالفضول، وشعر أيضًا بالراحة وهو يرى البسمة الهادئة لهذا العجوز البدين «بويا» وقال له:

إذًا دعها تتقدم وتعرض علينا ما جاءت من أجله..

فأشار «بويا» إليها وقال بصوتٍ جهوري:

ـ تقدمي يا «داشيتا»..

تقدمت «داشيتا» بثقة وخفة و قد ارتدت ثيابًا فاخرة من الكتان، وتزينت بقطعة

من جلد نمر، ووضعت على صدرها القلائد العاجية وقلائد الذهب التي تتدلى منها حبات العقيق الأحمر..

رفع « قمبيز » بصره نحوها مشدوهًا.. للوهلة الأولى سقط أسيرًا في عالم عينيها الساحرتين، كان بريقهما يجذبه كلما تقدمت..

ران الصمت للحظات.. انتظرت الإذن بالحديث، لكنه كان مثبتًا نظره نحوها وقد نسي من حوله..

راقب «وزحاررسن» ما يحدث بقلقٍ شديد، كان يجلس في نهاية القاعة، حاول الاقتراب لكنه خشي أن يرى «قمبيز» فضوله.. أثاره أيضًا جمالها ولكن بطريقة أخرى..

تنبه « ملك الفرس» أخيرًا وخشي أن تهتز هيبته، فأشار لها بالحديث.

تقدمت خطوات ورفعت رأسها نحوه كانت تلك المرة الأولى التي أطلت فيها على ملامحه.. على قسمات وجهه، ففي كل مرة كانت تحاول قتله من مسافة بعيدة جدًا لكنه الآن أمامها.. لا يفصلها عنه سوى خطوات قليلة.. شعرت بالهيبة، فلم ترى رجلاً تتجلى كل معالم الرجولة على وجهه مثله، وخيل إليها للحظات وهي تذوب في تلك الهيبة، كأنما الدنيا بأسرها خلقت لخدمته..!! تماسكت و أحنت رأسها لتحيته ثم بدأت تعرض فكرتها:

ـ أنا هي « داشيتا» الساحرة الطبيبة الكاهنة التي حدثك عنها هذا الرجل أيها الملك المعظم الشجاع «قمبيز» وقد جئت أعرض عليك عرضًا ما أردت به إلا الحفاظ على بني قومي من الهلاك، وجعلهم في طاعتك.

ـ وما عرضك إذًا..؟

ـ لقد علمنا بما فعله ملك كوش، مع سفرائك، ووصلنا ما عزمت عليه من استنفار جيشك، لمحاربته، و إدخال بلاده في مملكتك التي بلا حدود، ومما لا يخفى

على مولاي أن الطريق إلى بلاد كوش، ومن بعدها إثيوبيا وكل الجنوب، طريق وعر، وخصوصًا إذا أبحرت في النيل لما به من شلالات، وأخطار.. كما أن الفيضان قد انتهى وعادت للطريق وعورته، فأصبح لا طريق لجيشك غير سيوة والواحات الواقعة على الحدود.

هز قمبيز رأسه، وقد رأى من ذكاء عقلها ما شغله قليلاً عن جمال عينيها فقال:

- ثم ماذا..؟

- وهذه يا مولاي هي بلادنا، و مواقع قبائلنا، وفي مقدم جيشك إلينا هلاكنا، وهلاك أهلينا لذلك فقد أقنعنا زعماءنا بأن يقدموا لك فروض الطاعة والخضوع، ويسلموا لك، فتدخلها بلا حرب، على ألا تجبرهم على قتال قومهم معك، وسوف يسالمونك حتى تنتهي حربك، مع ملك كوش.

داعب «قمبيز» لحيته مفكرًا وقد أعجبه منطقها كما بهره جمالها، و إن كان أضمر شيء في نفسه لخيانتها هي وقومها لملك كوش الذي يحكمهم.. ثم قال:

- وماذا تريدون لقاء ذلك؟

صمتت لحظة ثم نظرت في عيني «قمبيز» مباشرةً وعلى وجهها ابتسامة ثقة قائلة:

- الأمان لأقوامنا يا مولاي، فنحن نحب العيش في طمأنينة وسلام، ولا نطمع سوى في أن نجنب قبائلنا ويلات الحروب ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالخضوع والإذعان لسلطانك والطاعة لإرادتك، فمن لا يرى عظمة فتوحاتك فهو أعمى بالتأكيد يا سيدي..

سرت موجة من الرضا في قلبه عند سماعه لهذا الثناء الرقيق، وطغا عليه الإحساس بالفخر وابتسم لها، وهو مازال معلقًا بصره بعينيها قائلاً:

- حسنًا سأفكر في الأمر، وغدًا في مثل هذه الساعة سيصلكم جوابي..

ثم التفت إلى حاجبة قائلاً:

ـ أنزلوهم في بيت الضيافة وأحضروهم لي في الغد..

***

مر الوفد النوبي بهدوء عبر طرقات الحديقة حتى وصلوا إلى بيت كبير أنيق الشكل ملتصق بسور القصر جهزه الحرس لإقامتهم..

تبسم «بويا» قائلاً:

ـ ليت «حاروز» معنا.. لماذا تركتهِ عند الشط يحرس زوارقنا..؟

أحنت «داشيتا» رأسها حزنًا وهي تقول:

ـ هذا خير له.. أنسيت أنه كان أسيرًا هنا من قبل، وربما تعرف عليه أحد الجند.. إن أخشى ما أخشاه الآن هو أن يتخلى عن حذره ويأتي بدافع من فضوله وخوفه علينا.

ضحك «بويا»:

ـ ذلك جنون عهدته فيه.

ـ ليس جنونًا يا عماه.. إنها أشياء أخرى أكثر عمقًا من ذلك فأنا لم أر في كل أنحاء البلاد رجلا مثله، يجمع بين الشباب والقوة والجراءة والقلب الطيب.

ـ لو سمع ما سمعت الآن لما نام ليلته.. يبدو أن الفتى الطيب قد وجد له مكانًا في قلبك.. كم تمنيت أن أحدث الأم «بيرما» الآن.

أحمر وجهها خجلاً و أسرعت تخرج إلى الحديقة وهي تقول:

ـ آه منك أيها العجوز الطيب، يبدو أنك تنصت إلى «بيرما» كثيرًا، ويؤثر فيك خبزها الساخن.

جذبها «بويا» بلطف قائلاً:

- إلى أين يابنتي..؟

- لا تقلق.. لكنه بعض الشوق لموطني فهذا القصر كان قصر خالي يومًا ما، وهذه الحديقة الواسعة كانت أول مكان أخطو فيه وأرى العالم.

- لكن لا نريد أن يشك الحرس بشيء.

- الحراس يقفون فقط عند الباب الأمامي، ورائحة أشجار الليمون واللارنج تجذبني إلى ذكريات دافئة.

- حسنًا كما تشائين، أما أنا فهناك طعام شهي بالداخل له جاذبية بلا حدود.

سارت «داشيتا» في الحديقة بينما دخل بقية الوفد إلى بيت الضيافة وهدأت النفوس فقد مر كل شيء بدقة وحرص..

لكن لم يخل الأمر من عين تتبعهم وقد ساورها الشك..



المواجهة



في بيته الكبير على ضفاف النيل ورغم ظلام الليل وبرودة الجو الدافعة إلى النوم والسكون، إلا أن عقله المزدحم بالأفكار والدسائس لم يستطع أن يخضع لجفونه المثقلة.. تقلب كثيرًا على فراشه، لكنه قام أخيرًا وقد بدأت الصور والأحداث الماضية تلتحم في ذاكرته ..

هرش «وزاحررسن» في رأسه الأصلع مفكرًا:..

- وفد نوبي جاء يُلطف من ويلات الحرب، ويعرض خطة ليأمن الجنوب هلاكًا محققًا على يد ملك الفرس.. جائز.. أما هذه الكاهنة ابنة الكاهن الساحرة أخت الساحر، والطبيبة، التي كان زوجها طبيب، فرغم ما كست به نفسها من هيبة، فإن جمالها يفضحها رغم سمرتها، إنه جمال لم نعهده في بلاد كوش.. فلا يملك هذا الجمال النادر سوى بنات أحمس «أماسيس».

أخذ «وزحاررسن» يلف ويدور في حجرته مفكرًا يتقلب على جمر المؤامرة.. هتف أخيرًا بلا وعي:

- «بانيحور» لايوجد غيره إنه هو «بانيحور» ذلك الكاهن الذي أرسله الفرعون أحمس «أماسيس» منذ قرابة العشرين عامًا ليعلم الكوشيين ديانتنا.. وزوجه أخته «تي نفرو» .. فأنجبت له ولدًا عمل ساحرًا في قصر الفرعون، و فتاة زوجها طبيبًا في الجيش.. إنها على حق «ابنة كاهن، وأخت ساحر، وزوجة طبيب..

إنها «داشيتا» ابنة عمة الفرعون «أبسماتيك الثالث».. ياله من صيد ثمين.

قرر«وزحاررسن» على الفور إبلاغ «قمبيز» وخرج متجهًا نحو قصره غير مبالٍ بتلك الساعة من الليل، حتى أنه لأول مرة يتخلى عن حذره ويتحرك من بيته بلا حراس وهو يمني نفسه أن يكون كشفه لتلك الخطة هو الإثبات الحقيقي لإخلاصه لملك الفرس، وبذلك يُعجل من اعتلائه لكرسي الحكم في مدينة «سايس» ذلك الذي صار أهم أمنياته، بعد أن منّاه به «قمبيز» وأخرَ حصوله عليه اكتشاف الملكة «نيتيتس» لوصيفتها التابعة له..

أما الآن وقد وقعت في يده الأميرة «داشيتا» فقد يفوز بأكثر مما يحلم، يكفي فقط أن يعرف ماذا تريد..؟ وما خططها هي ووفدها العجيب..؟

لكنه عندما اقترب من القصر بدأ اندفاعه يخذله، وعقله النشط يُغير اتجاهه.. فلم يعد بينه وبين بيت الضيافة سوى خطوات قليلة، وهناك ربما تختلف الأمور ويتحول الربح من مجرد إرضاء «قمبيز» والفوز بثقته وعطائه إلى اعتلاء عرشه، فلربما يكون خلف تلك الفتاه جيش وثورة وخطط تُحرك المياه الراكدة.. و إلا فمن أين أتت بتلك الثقة في حديثها..؟!!

لم يتردد وزاد من اندفاعه أن لمح شبحها من بعيد، وهي تسير في الحديقة وحدها بعيدًا عند أشجار الليمون المثمرة، تعجب فهاهو قدره يتيح له أعظم فرصة و يفتح له الطريق على مصراعيه.. لا يحتاج الآن سوى قليلاً من الحذر والحكمة، وهما لعبتيه اللتان أتقن اللعب بهما زمنا طويلا.

سمعت خطواته الحذرة تقترب فانتفضت واقفة، كادت تصرخ منادية على رجالها، لولا أنه بادرها بقوله:

- حذار أن تنطقي يا «داشيتا».

تنبهت كل حواسها وقد أدركت بفطرتها أن هناك من كشف خطتها.. نظرت

نحوه كان قد اقترب أكثر.. عرفته على الفور.. قالت في اشمئزاز:

ـ من.. «وزحاررسن» الخائن..

ـ هذه كلمة لا تناسبني الآن يابنت الملوك، قولي بدلاً منها.. الحاكم.

ـ حتى تلك الكلمة تُعد خيانة مادامت تحت إمرة غازٍ مغتصب.

ـ كلٌ له هدفه أيتها الأميرة.. وهدفي أعرفه تمامًا ولم يعد أمامي سوى خطوات قليلة وأصل إليه.. فما هدفك أنتِ.؟

كان يقترب منها بهدوء كالثعبان مع كل كلمة وهو ممسك بخنجره في يده يخبئه خلف ظهره، لكنها كانت ثابتة، وقد علمتها الأيام أنه لم يعد للخوف مكان في قلبها، قالت بلا تردد:..

ـ قد يكون رأسك.

تبسم في خبث:

ـ هذا ما لا قِبل لك به.. و الآن جاء زمن الإفصاح فبيني وبين قصر «قمبيز» خطوات يُفتضح بها أمرك.. وليس أمامك سوى مهادنتي وإخباري بكل شيء عن خطتك ومن وراءك.؟ فكري جيدًا فرب أكون أنا خير معين لكِ فأنا مصري مثلك، وهؤلاء مجرد فرس ليسوا من دمائنا

ـ لا تقل مصري مرة أخرى.. فكل ذرة تراب بتلك الأرض الطاهرة تلعنك وتتبرأ منك، ولتعلم أنني لم أهادن خائنًا من قبل، أما يكفيك ما جلبته للبلاد من هزيمة ولنفسك من عار ستنال عقابه يومًا..؟ وسيعيش أبناؤك به بقية أعمارهم.

رفع صوته قليلاً و قد أخذه الغضب:

ـ سيفخرون بي حين يجدونني حاكمًا لمدينتي التي أحبها، وسيغرقون في نعيمي وذهبي وكنوزي..

ـ مازلت تحلم أيها المسكين.. قد يكون «قمبيز» احتاج إليك لفترة، لكنه ملك من

سلالة ملوك، وأول درس يتعلمه أبناء الملوك ألا يحتفظوا بخائن لبلاده مهما ساعدهم.

سرت الدماء في وجنتيه وارتجفت عضلاته وخفق قلبه، ثم تحول صبره في لحظة إلى غضب وفي خطوة واحدة كان قد أصبح قريبًا جدًا منها، فهجم عليها وأمسك بها مهددًا لها بخنجره الذي وضعه على عنقها.

ـ والآن ليس أمامك خيار آخر فحياتك في يدي، وستخبرينني الآن عن سر هذا الوفد الذي تقودينه، و إلا ستشرق الشمس على رؤوسكم جميعًا معلقة على أبواب المدينة..

ـ أترك عنقي أيها الخائن الجبان، وواجهني بسيفك إن كنت رجلا.

أم أنك تخاف أن تهزمك النساء؟

ضغط بقوة على عنقها ووضع خنجره على صدرها وهو يضحك قائلا:

ـ لن تستطيعي إثارة كبريائي فأنا رجل سياسة ودهاء وتلك لعبتي أنا و سأعرف هدفك شئتِ أم أبيتِ.. وستخبرينني الآن عما أردت ووو.... آه

لم يكمل كلماته، وكانت صرخته التي أطلقها هي الصرخة الأخيرة التي خر على أثرها صريعًا.. وسقط خنجره من يده..

انتفضت «داشيتا» فزعة وهي ترى «وزاحررسن» يتهاوى على الأرض وفي ظهره رمح طويل قد أصاب هدفه القاتل بدقة..

نظرت بسرعة نحو الجهة التي أتى منها الرمح، لمحت شبحًا يبتعد ويصعد السور في مهارة وسرعة.. لم تنطق أو تحاول أن تجمع عليه الحرس لكنها شعرت بداخلها بالسعادة لأنه خلص الدنيا من رجل لا يستحق نعمة الحياة.. و برغم ذلك أسرعت نحو بيت الضيافة فحتى الآن لم يشعر أحد من أهل القصر بما حدث، ومن حسن قدرها أنهم سيجدون جثمان «وزاحررسن» بين أشجار الليمون بعيدًا عن بيت الضيافة وبذلك سيبتعد الشك عن الوفد النوبي تمامًا..

حارس الزوارق



لم يكن «حاروز» راضيًا عن بقائه حارسًا للزوارق وافتراقه عن «داشيتا» وهي في أكثر مكان يمكن أن تحتاجه فيه، لكن إصرارها على بقائه وخوفها عليه من مغامرة دخوله القصر، وكشف «قمبيز» له اضطره في النهاية إلى البقاء إرضاءًا لها.. لكن الليل طال، ولم تأته أخبار عنها ولا عن أصحابه، خاف أن تكون حيلتها قد تم كشفها.. فقرر أخيرًا أن يتحرك ويستقصي الأخبار بنفسه مهما كان الثمن، كان قلقه عليها لا يوصف، لذلك بدأ يتحرك في حذر فكر أن يتخذ من ماء النيل مكانًا يحميه ويخفيه عن العيون فبدأ يسبح باتجاه القصر الكبير الواقع على الشاطئ، راقب الجنود من بعيد، وعاين أماكن الحراسة.. ثم بدأ يصعد من النهر في مكان خالٍ من الحراسة، وقبل أن يقترب من الجدار، وجد شبحًا فوق سور الحديقة يقفز إلى النهر بسرعة.. لاحظ الحرس الشبح فتحركوا نحو هذه الجهة من السور، وفي لحظات ارتفعت المشاعل، وعلت الصيحات، متجهة إليه، فلم يجد مفرًا من القفز في الماء، والهروب بأقصى سرعة قبل أن يعود إلى سجن مازالت أثاره علامات بارزة على جسده، وقبل أن يصلوا إلى مكانه كان قد اقترب من مكان الزوارق وبدلاً من أن يجلس يحرسها زحف إلى قاع زورق و قضى ليلته مختبئًا فيه، وهو يسمع وقع أقدام الجند، وهم يقطعون حدود الشاطئ، يبحثون عن حركة أو شبح يتحرك مختبئًا لكي يوقظ الحياة في رماحهم الطويلة.. حتى أشرقت الشمس.

في جناحها الملكي ارتفعت ضحكات «نيتيتس» الجنونية، وهي تسكب صرة من الذهب الخالص على رأس «طاهو» هذا الرامي الإغريقي البارع الذي كان ضمن جنود المرتزقة، والذي نجح رمحه في إبعاد غريمها عن دنياها:..

- أخبرني كيف فعلتها يا«طاهو».. فذكر موت هذا اللعين يُمتعني.

- منذ شهور يا مولاتي الملكة وأنا أراقبه ليل نهار، لكنه ثعبان ماكر لا تغفل له عيون ولكن هذه المرة كانت المرة الأولى التي يتخلى فيها عن حذره، ويتحرك بلا حرس..!! تعجبت لذلك وتابعته من بعيد حتى دخل القصر فصعدت إحدى الأشجار لأتابعه وهو يتحرك متسللاً في الحديقة، حتى وصل إلى الفتاة التي كانت تسير بين أشجار الليمون، وعندما أعطاني ظهره وهو يمسك بها ويحاول سلب روحها بخنجره، كان رمحي هو الأسبق إلى روحه.

تعجبت «نيتيتس» :

- فتاة.. أية فتاة.. من هي..؟

- النوبية يا مولاتي.. تلك الساحرة التي أتت مع الوفد لمقابلة مولاي الملك.

- نوبية، وساحرة أيضًا.. متى حدث هذا..؟ لقد بدأت أشياء كثيرة تحدث في القصر، ولا تبلغني في وقتها، ولكن ما علاقة «وزاحررسن» بها..؟ ولماذا كان يحاول قتلها..؟

- لا أدري يا مولاتي لقد كان يهددها، ولكن المسافة بيني وبينه كانت بعيدة فلم أسمع حديثهما، إلى أن رأيته يخبيء خنجره خلف ظهره، وهجم عليها ليقتلها.. لكنها كانت لا تهابه..

- أشم رائحة الخطر يا «طاهو»، هذه الفتاة يجب أن أراها، و أعرف ما وراءها..

أحنى طاهو رأسه لها قائلاً:

- لقد علمت يا مولاتي أن مولاي « قمبيز» قد حدد لها موعدًا بعد ظهر اليوم

ليلقاها هي والوفد النوبي، فقد عرضت عليه أمورًا تخص الحرب مع الإثيوبيين.

ـ حسنًا مازال الوقت مبكرًا.. يمكنني قبل ذلك أن أعرف كل ما أردت معرفته..

قالت الملكة ذلك وأدارت ظهرها إلى الرجل ومشت بخطوات واثقة في البهو الفسيح المعبق بروائح الطيب والبخور المتلألئ بأنوار المصابيح، وما لبثت أن غابت خلف باب حجرة نومها لحظات، ثم خرجت وقد وضعت على كتفيها عباءة فارسية فاخرة، وارتدت بعضًا من حليها الذهبية، قالت لخادمتها:

ـ أخبري حرسي بالاستعداد في حديقة القصر فسأخرج إليهم الآن.. أما أنت يا «طاهو» فاجمع ذهبك الآن، وأسرع بالاختباء بعض الوقت إلى أن أرسل لك، فربما يكون أحد الحرس قد تعرف عليك.

ـ مولاتي، لقد كان الوقت ليلاً ومن الصعب فيه تمييز الوجوه.

انتبهت الملكة على صوت خطوات قوية تقترب، من جناحها، وبعد لحظات كان «قمبيز» يدفع الباب في عنف، وخلفه بعض قادة جيشه.. ارتعدت فرائص «طاهو» الذي كان يجمع ذهبه بينما أسرعت «نيتيتس» نحو ابنها في ذهول وقد بدت على وجهها آثار الفزع، فبادرها قائلاً:

ـ هل حصلت الملكة العظيمة على ما أرادت..؟

حدقت في وجهه للحظات، ثم تمالكت أعصابها، وقالت:

ـ «قمبيز» ولدي.. أي ريحٍ طيبة أتت بك الآن.

نظر قمبيز نحو «طاهو» الواقف يرتعد وقد سقط الذهب من بين يديه، ثم التفت إليها وعلى وجهه نظرة نارية قائلاً:..

ـ رياح المؤامرة، أيتها الملكة المهيبة، فما عدت أعرف من منا يحكم تلك البلدة،

ويقرر مصير من فيها.؟

- ماذا تقصد..؟

- الملكة تعرف جيدًا أن غريمها «وزحاررسن» قد رحل الآن..

- رحل أخيرًا.. إلى أي البلاد قد فارقنا بشره وخيانته..؟

تحولت نظرته إلى السخرية:

- رحل عن دنيانا، برمحٍ إغريقي في ظهره.. وهاأنتِ تكافئين قاتله.

حاولت مرة أخرى أن تتماسك:

- ماذا تقول..؟ كيف تتهمني بهذا الاتهام وأنا أمك.. أمك يا «قمبيز» أنسيت، كما أنني أيضًا ملكة مصر وفارس، فكيف أتخذ من مثل هذا اللاشيء غريمًا لي؟

- هذا ليس اتهامًا أيتها السيدة الجليلة، بل واقع حي يتوجه الذهب.. وهذا الإغريقي الساذج ما فضحه إلا تعجله لنيل ثمرة ما فعله، ونسي أن هذا القصر تحول إلى قصر للمؤامرات وصار لكل من فيه عين على الآخر.

- ماذا تقصد..؟ هل كنت تراقبني.؟

- ليس بالمعنى الذي تبادر إلى ذهن ملكة المؤامرات إنه نوع من الحماية و أنا ماجئت هنا لأحاسبك أيتها الملكة القوية سليلة الأمجاد، بل لأريحك من الكثير مما تعانينه، فقد تعبتِ كثيرًا في إعادة البريق لما شيده آباؤك، وتعبتِ أكثر في الإنفاق على من يقومون بحمايتك.

ماذا تقصد..؟

- لم تعودي بحاجة لهم، بعد الآن فمنذ اليوم أصبحوا في صفوف الجيش الذاهب لفتح الجنوب، و أنتِ بحاجة ماسة إلى الراحة في جناحك وتحديد إقامتك فيه لبعض الوقت، بعد ما عانيته من جهدٍ في الأيام الماضية، وقد عملت جيدًا على

تأمين هذا الأمر، أما ما فعلتِه من إعادة البريق، لتاريخ آبائك، فهو عملٌ رائع، يستحق أن تفخري به، وسيضيفه هذا الشعب إلى تاريخي، و إنجازاتي ويقربني منه.. فأنا بحاجة إلى تأييد الكهنة، والكثير من المال والرجال لتمويل هذا الجيش..

- «قمبيز» ماذا تقول..؟ تحدد إقامتي أنا.. كيف تفعل هذا بأمك..ألا تشعر بالذنب لهذا الجُرم البشع.

- لقد سبق أن فعلت أكثر منه بأخي وقد علمتني من قبل أنني لا أتراجع.

قالها « قمبيز» وهو يصفع الباب خلفه بعد أن تركها تتهاوى على الأرض باكية، و أخذ رجاله معهم «طاهو».



لقاء جديد



في بيت الضيافة قضت «داشيتا» ليلة قلقة تنتظر في كل لحظة أن يأتي من يكشف أمرها هي ومن معها، أخذت الأفكار تتصارع في رأسها.. فإن كان «وزحاررسن» قد مات، فهل كان وراءه أحد.. وهل تعرف عليها غيره..

لكن موجه دافئة من السعادة سرت في قلبها، حين تذكرت الرمح الذي قتله وشعرت بأن «حاروز» المحب هو حارسها الأمين، ومنقذها في الشدائد.. إنها ضربة في مقتل و«حاروز» من أمهر من يستعملون هذا النوع من الرماح.. ولكن لماذا فر بعد أن قتله وتركها مع جثته وحيدة..؟! لماذا لم يقترب منها، أو يُظهر لها نفسه..؟ هل أراد أن يشعرها بحمايته لها في الخفاء، أم لا يريد أن يُحملها جميلا آخر يدفعها إلي حبه.. يا له من محب صامت وكبير القلب.. أحيانًا كثيرة تشعر بأنها تميل إليه.. لكن كل شيء يدفعها للابتعاد عنه..

ارتجف قلبها.. وبدأت المخاوف تحيطها، وماذا لو كانوا قد قبضوا عليه في أثناء هروبه.. رباه.. ستكون كارثة، هتفت بصوت مرتفع:

ـ نعم ستكون كارثة..

أفاقت من شرودها على صوت «بويا» الذي جاءها مطمئنا:

ـ لا تقلقي يا ابنتي.. إنه في أمان.. فقد أرسلت أحد رجالنا يطمئنني عليه كما أمرتِ.. وقد وجده نائما في أحد زوارقنا الراسية على الشاطىء..

ـ وهل حدثه «حاروز» بشيء عن الليلة الماضية..؟

ـ قال إنه اقترب من القصر.. لكن الحراسة كانت مشددة

همست في نفسها (يا له من كتوم)..

شعرت بسعادة غامرة لنجاته وارتياح لا مثيل له.. حقًا إنه حارسها الذي لا تغفل عينه و لا يتحدث عما يفعله.

عدل العم «بويا» من هندامه وقال وهو يخرج من الحجرة:

حسنا يا بنتي هيا نستعد فموعد لقائنا بقمبيز قد حان..

***

داعبت أشعة الشمس وجه قمبيز، ففتح عينيه بصعوبة ورفع رأسه أخيرًا من على الأرض بعد أن قضى ساعات عصيبة.. فقد فاجأته نوبة الصرع وحيدًا بعد مغادرته لجناح أمه.. ترنح كثيرًا، وتقلب على الأرض أكثر.. لكن النوبة كانت هذه المرة أقسى وأشد من سابقاتها، حتى أنه تمنى لو كانت بجواره لتخفف عنه فهي الوحيدة في هذا العالم التي باستطاعتها أن تحتويه مهما احتدم الخلاف بينهما؛ لأنها في تلك اللحظات تكون الأم الحانية التي يسعه حضنها مهما امتلك من العالم..

تمكن أخيرا من الوقوف.. جلس على سريره، بعد أن أفاق من صرعه، وبدأ صراعه مع نفسه..!!

هل كان على حق حين قام بتحجيم أمه «نيتيتس» وتحديد إقامتها أم أنه خسر بذلك مأواه وأمانه الأول..؟؟ لكن لم يكن لديه خيار فنفوذها وطموحها فاقا كل تخيل، ومؤامراتها وأعداؤها أيضا صاروا بلا حدود..!!

قد يكون بهذا التحجيم قد حماها من نفسها قبل أن يحمى عالمه منها..!!

ولكن هل حقا نجح في كبح جماحها..؟ أم أن نفوذها مازال أقوى مما يمكن تخيله؟

وهل غاب حقا «وزحاررسن» عن عالم الأحياء؟؟ فبرغم أنه لا يحبه ويكره رفقته.. إلا أنه افتقده..!!

حين رأي جثته مسجاه وفي ظهره الرمح.. شعر أنه فقد شيئا كبيرًا.. فقد كان هذا الثعبان هو همزة الوصل بينه وبين عالم المصريين العجيب، فهو دليله في صحرائهم، وزورقه في مياههم.. ولسانه أمام كهنتهم.. إنه نموذج للقائد المحنك والطبيب القدير والكاهن المتمرس والعالم المتميز.. الذي يمكنك شراء ولائه بحفنة من الذهب.. «حتى لو كان هذا الولاء مؤقتا».. فإن له أهمية كبيرة في هذا الوقت.. إنه حقًا خائن بل أحقر خائن رآه.. فمن علمته بلاده كل هذا كيف يخونها..

ورغم أنه كان سيتخلص منه في النهاية.. وذلك لعهدٍ قطعه على نفسه، إلا أن فقده له في تلك المرحلة يُعد خسارة فادحة..

أراد «قمبيز» الاسترخاء.. وأن يركن إلى الراحة بعد هذا الجهد وذلك العناء الذي كابده في الساعات الماضية لكنه تنبه على صوت طرقات خفيفة تدق ببابه فقد كان خادمه يُذكره بذلك الموعد الذي ضربه للوفد النوبي لمقابلتهم عصر اليوم ويخبره بأن الوفد بانتظار اعتلائه للعرش والسماح لهم بالدخول..

انتفض «قمبيز» قائما.. وقد لاحت أمام عينيه صورة «داشيتا».. تبسم وتذكر عينيها الرائعتين.. كم كانت لحظات عميقة السعادة تلك التي أبحر فيها بين أسرار تلك العيون السوداء اللامعة.. إنها حقا ساحرة.. نعم ساحرة الجمال.. كما أنها رشيقة ممشوقة القوام، واثقة النظرات، تعرف ما تريد، لكن ما تريده رغم توافقه مع ما يرغب يُسقط من قيمتها عنده، و يزعزع ما كان يتمنى لها من مكانة، حين غزت

عيناها قلبه، فهي رغم كل شيء قد جاءت تحمي قومها على حساب خيانة ملك بلادها، وتطلب لهم الأمان على أن يخونوا من يحكمهم، ويفتحوا الأبواب، ويساعدوه كغازيٍ لبلادهم.. هل تصبح هذه الجميلة بالنسبة له « وزحاررسن» آخر و «فانيس» جديد أم أن الأمر به بعضًا من الاختلاف.. شعر بغصة عميقة في قلبه، فهاهي الخيانة ما تزال تحيطه من كل مكان حوله، وتُصر على أن تكون أعظم أسلحته في فتح البلدان التي يتجه نحوها بجيشه، حقًا لم يعد هناك قيمة واحدة يمكن له أن يحترمها.. وحينها لاح له صوت أمه وهي تلقنه أفكارها صغيرًا قائلة:

ـ قيمة الأشياء ليست في ذاتها، وإنما الإنسان هو الذي يضع القيم للأشياء تبعًا لطبيعته، وجوهره!!.. وجوهرنا هو السيادة والقوة، فنحن الذين يجب أن نضع القيم المناسبة لطبيعتنا، ليؤمن بها من حولنا.

لكن معلمه كان دائمًا يلقنه عكس كلامها بقوله:

ـ لا يجني الإنسان من الوجود أعظم الثمار، و ينعم بما فيه إلا إذا تمسك بالفضيلة، وأعلى من قيم النبل، والوفاء، وكره الخيانه.

وقد وجد «قمبيز» لكلام معلمه الصدى الأكبر في نفسه، وبنى عليه حُكمه، وحكمته أيضًا.

مر بعض الوقت قبل أن يأمر خادمه بأن يُعد له حمامه الدافىء، و يساعده في ارتداء ملابسه، حيث اتجه بعدها نحو قاعة العرش، وعكف قليلاً على الاطلاع على الخطابات والتقارير الواردة من كافة أرجاء البلاد، حتى إذا فرغ استدعى الوفد النوبي الذين أقبلوا فركعوا عند تجاوزهم للباب، وبعدها تقدموا جميعًا عندما سمح لهم بذلك، وقد كان هذه المرة أكثر إشراقًا، فقد بدأت معالم الطريق تتضح في عقله العسكري البارع في التدبير، وقد رأى أنهم سيكونون فرصته الكبرى في الرد على غرور ملك الإثيوبيين وقهره في وقت أقل بكثير مما كان يخطط له، كما أن خطة هذه

الساحرة الكاهنة التي أبهرته بجمالها، قد أبهرت عقله أيضًا ووافقت منابع القوة فيه، حيث قد أتت له بفتح جديد لا عناء فيه، سوى مشقة المسير واجتياز الصحراء، تلك الصحراء التي أصبح اجتيازها نفسه هو أكبر تحدٍ لقوته، بعد أن ابتلعت من جنده جيشًا بأكمله منذ شهور.!!

رآها بينهم تقترب، وكأنما لم يقو «قمبيز» على الانتظار، تابعها بنظراته المسحورة بها، إنها حقًا تختلف عن كل من رأى من النساء، ففي عينيها جمالاً وقوة وحزن، والكثير من الأسرار..!! كل هذا كان يجذبه إليها..

هي أيضًا لا تستطيع أن تحول نظراتها عنه، لا تدري أي قوى سحرية تجذبها إليه، وأحست بالضآلة والرهبة والضعف، ونسيت للحظات شعورها العميق بالانتقام منه، وبدماء عائلتها التي تطالبها بالثأر، وراحت الحمرة المضرجة والشحوب المتقع يتناوبان على ملامح وجهها، وهي ترى نظراته الثاقبة المسلطة عليها، شعرت بالخجل، فأحنت رأسها قائلة:

ـ مولاي الملك المعظم، مُفني الجيوش، ومزلزل العروش، الذي إذا حكم أنصف، وإذا قدر عفى، قد وعدنا بأن يتكرم علينا برأيه اليوم.

إذ ذاك لانت قسمات «قمبيز» وهزت الكلمات زهوه وقد بدا له حرصها على الفوز برضاه فتبسم أخيرًا وهو يبلغهم قراره:

ـ فليذهب الوفد إلى النوبة ليبلغوا الأمان الذي أهبه لكل أهليها، وساكني قراهم، على ألا يحمل منهم بشرًا سيفًا في وجهنا، وأن يفتحوا لنا الأبواب والحصون، وأن يجهزوا لنا ما استطاعوا من مؤنة، وماء لمتابعة مسيرتنا لفتح الجنوب الإثيوبي كله.

أما أنتِ أيتها الكاهنة الحكيمة « داشيتا» فستمكثين معي هنا.

انتفض قلب «داشيتا» عند سماعها لتلك الكلمات، وظهر الاضطراب على

الوجوه..

وعندما قرأ «قمبيز» الدهشة في عيون سامعيه تابع كلامه قائلاً:

ـ نعم ستبقى معي، لترافقني.. فلن أجد دليلاً لنا في مجاهل صحرائكم، وجبالها، ووديانها خيرًا منها.. كما أن وجودها معنا كسيدة لها مكانتها في قومها هو الدليل الحقيقي على أن قومكم سيؤدون فروض الطاعة وينقادون لسلطاني.

قال تلك الكلمات، وأشار للوفد بالانصراف، فما وجدت «داشيتا» مجالاً لمحاولة الفرار من مصير محتوم..

كان كل شيء يتصارع بداخلها، فهاهي خطتها توشك على النجاح، لكن لماذا يحتفظ بها دون غيرها..؟ ولماذا لا تجد بداخلها القوة التي كانت تشتعل من قبل..؟؟ تلك القوة التي أطلقت منها سهامها القاتلة عليه، و التي مع الأسف لم تصل إليه، واضطرتها إلى طريق لا تعرف نهايته.

وفجأة ملأ رأسها ضباب، امتزجت فيه واختلطت صور كثيرة غير واضحة كانت تستشعر أغوارها، أرادت أن تثبت لنفسها أنها ماتزال قادرة على أن تصب كرهها له فحيحًا.. نعم فهاهي سهامها المسمومة تملأ جعبتها، ومازال قوسها أيضًا في بيت الضيافة، وقد كانت منذ البداية تضع هذا كحل بديل عند إخفاق خطتها.. أسرعت مع الوفد إلى هناك.. دخلت مسرعة إلى حجرتها.. تبعها العم «بويا» الذي لم تغفل عينه عنها عند لقائها بقمبيز.. كان الباب مازال مفتوحًا رآها وهي تقبض على قوسها، وتعيد تنظيم سهامها وتغمس رؤوس السهام من جديد في زجاجة السم التي لا تفارق القارورة الصغيرة المعلقة في عقدها العاجي، الذي يُحلي رقبتها، فاقترب منها وقد شعر ببعض القلق، فهو يعرف متى تمتلىء عينيها بالحدة، ومتى تكسوها الرقة..

لاحظت وجوده فتصنعت الابتسامة.. قال لها:

- من الحكمة، ألا نبدأ من النهاية، و إلا نجعل القشة هي أول ما يتمسك به الغريق.

فهمته على الفور، قالت وقد ظهر عليها الارتباك:

- ماذا تقصد.؟

- أنا شيخ طاعن في السن حقًا يا بنتي، لكن لا أعتقد أن تلك السنين قد مرت هباءًا دون أن تمدني بشيء من المعرفة بطبائع البشر، و تجعل في نفسي تفسيرًا لنظرات العيون وحديثها.

ازداد ارتباكها حتى أن أحد السهام سقط من يدها، قالت وهي تشعر أنه يكشف في لحظات كل أسرارها..

- أنا لا أفهمك يا عماه..!! فحديثك يزداد غموضًا..

تبسم مفصحًا لأسنانه الكبيرة المكان الأفضل في وجهه، اقترب منها، ووضع يده الحانية على كتفها.. قال:

- إنه ملك شاب له من قوة الشخصية، والرجولة، والهيبة، ما لم يحظ به الكثير غيره، ولكن على من يتعامل معه، أن يضع هدفه نِصب عينيه..

شعرت بأنه يحتويها، ويمكنها أن تبثه ما بنفسها من أسرار النفس وحديثها دون خجل قالت:

- نعم.. إنه كذلك، فعندما رأيته شعرت بالهيبة، ووجدت له وقعًا عجيبًا داخلي، فلم أر رجلاً مثله.. كانت عيناه تخترقاني لتكشفا ما بأعماقي، شعرت بسيادته، وخشيت على نفسي من ضعفها، فتعلقت بجراحات الماضي، واستعذبت المرارة في حلقي، وصيحات الثأر التي تلتهمني، فلجأت إلى سهامي أتقوى بها، وأجدد عزيمتي.. واندفعت الذكريات أمام عيني كالشلال.

هز رأسه أسفًا:

ـ الذكريات عمومًا لا تخلوا أبدًا من ألم، ولكن ما الذي سنجنيه من المرارة التي نختزنها في أنفسنا..؟ لاشيء إلا أن تتحرك أفئدتنا للحقد الأسود فينهشنا ويضرم في جوانحنا نيران العذاب، فنُخطيء التصرف، ويضيع بخطأنا كل من حولنا..

أحنت «داشيتا» رأسها خجلاً، ووضعت قوسها وسهامها جانبًا قائلة:

ـ صدقت.. صدقت.

اتجه العم « بويا» نحو الباب وقد شعر بالاطمئنان، وقبل أن يخرج التفت إليها وقد ظهرت على وجهه ملامح الجد والقوة تلك التي كانت تختفي دائمًا خلف ابتسامته الطيبة، قال لها:

ـ نحن الآن في مهمة لإنقاذ شعوبنا كلها، وليس من حق أحد منا أن يتصرف تصرفًا فرديًا مهما كانت تناديه صيحات الثأر التي بداخله، وقد نجحنا على الأقل حتى الآن، ونحن الذين سنحدد بحرصنا.. كيف يمكن أن نكمل نجاحنا فيما نحن مقدمون عليه.

تنهد ثم نظر لها وقد عاد لوجهه هدوئه وصفاء ابتسامته ثم أكمل:

ـ و العبرة يا ابنتي في الرضا الذي يُنزل على قلوبنا السكينة، أو القلق الذي تضيق به صدورنا، وسيكون عليكِ أنتِ العبء الأكبر، و الأخطر، فهل تجدين في نفسك القوة لذلك.

قالها وانصرف بعد أن نجح في أن يثير جوانب من كهوف ذاتها، وأن يجلو الضباب عن بصيرتها.



«نيتيتس» بلا حرية

مرت بـ«نيتيتس» ساعات حافلة بالشقاء فقد باتت سجينة في مخدعها تحت حراسة الجنود لم تستطع أن تكبت إحساسها بالقهر.. فكيف لمثلها أن تروض نفسها على الصبر والتحمل بعد أن عاد إليها ملكها وسلطانها، ياله من حملٍ ثقيل يضنيها تحمله، لا تكاد عند التفكير فيه تستطيع حتى أن تتنفس، فمازلت تجد آثار الفجيعة لاذعة حارة جديدة في نفسها كأنها لم تمض عليها ساعة من نهار، ومع هذا فتبدو لها تلك الساعات القليلة الماضية عليها في محبسها كأنها دهورًا وأصفاد، كانت تحس أنها انتقلت إلى عالم من الفراغ.. إلى عالمٍ بغيض انحسرت عنه كل مباهج الحياة، صاحت كثيرًا ولعنته أكثر، حطمت في ثورتها الكثير من التحف، وقوارير العطر التي تعشقها، لطمت وصيفاتها، ومزقت وسائدها، دقت الباب طويلاً وصاحت بحرسٍ مُنعوا أن يفتحوا لها، وأخيرًا أحست بالخور والوهن يغلبانها وتهالكت على أريكة قريبة فغشيها النعاس..

بينما كان «قمبيز» الذي ظل بعد خروج «داشيتا» من مجلسه سارح الطرف شارد الذهن، وقد شعر بالكثير من المشاعر الدافئة، والسعادة التي لم يعرف لها سببًا، ولم تطرق بابه من قبل، فهو حتى الآن لا يدري أو يعرف شيئًا عما يسمي بالحب الأول، ورغم فتوته وشبابه، وكثرة من بالقصر من جوارٍ ومحظيات إلا أنه لم يهتم بهم

يومًا، فحياته التي لم يكن بها غير الصراع والدماء، والرغبة في التملك، وكلما طمع في شيء شعر بأنه عبد لرغبته في الحصول عليه..!! حتى إذا بلغه حرر نفسه من عبودية رغبته في تملكه، كي يستسلم في الحال لعبودية الرغبة في حلم آخر.. مطمع آخر، وكان يشعر دائمًا أنه لن ينقذه من عبودية رغباته إلا موته..!! فإرادة الحياة عنده هي أن تغزو أن تهجم لتنتصر، لتمتلك.

أما هي فلم يجد في نفسه الشعور بتملكها، ولو أردا ذلك لما منعه شيء، وهو الملك المطاع، لكنه شعر برغبة عارمة في أن يراها أمامه دائمًا، أن يبقيها بجانبه بعد أن فقد كل من كان يحمل لهم بعضًا من المشاعر، أراد أن يربح شيئًا بداخلها، أن يفوز بما هو أغلى من جسدها..

دون أن يدري وجد قدماه تتحركان في القصر باتجاه جناح أمه «نيتيتس»..!!

لا يعرف ما الذي دفعه إلى هناك..!! وكأنما قد نسي ما كان بينهما، أو أن هناك شيئ يدفعه من الداخل نحو أمه، التي كان كلما فرح في طفولته بشيء جعل لرأيها نصيبًا فيه مهما اختلفا..! فقد كانا معًا في بلاد فارس وحيدين، رغم انتمائه لأبيه، إلا أنها حرصت على أن تربيه على كونهما كتلة واحدة مختلفة عن كل من حولهما.. تفرح لانتصاره، وتهلك لانكساره.. ورغم ذلك هي وحدها التي تستطيع أن تشحذ عزيمته بطاقتها العجيبة على التحدي، وتدفعه لاقتحام أشد أنواع الأخطار.

فزع الجند لرؤيته، وأسرعوا يفتحون له باب جناحها.. نظر لهم متعجبًا لوجودهم، وكأنما نسي أنهم هنا بأمر منه.. لكنه عندما وضع قدمه بالداخل، ورأى النظرة النارية التي استقبلته بها «نيتيتس» أفاق من حالته الحالمة، وتذكر في لحظات قول معلمه « كنترياس» (إن أبشع ما يسدده إنسان نحو إنسان هو نظرة احتقار).. شعر برغبة عارمة في التراجع، لكنها كانت فرصتها في حصاره.

قالت بنبرة ساخرة:

- هل جئت مرة أخرى لتروض اللبؤة الحبيسة..؟

رماها بنظرة قاسية.. لكنه تذكر أنه جاءها بقدميه، فحاول أن يتكلف البسمة قائلاً:

- لم أضعها في قفصها الذهبي المؤقت، إلا لأحميها من نفسها، ومن طموحها..

ثارت ثائرتها، وضربت بيدها أبريقًا من الفخار فحطمته وهي تصرخ قائلةً:

- عن أي طموح تتحدث، و كيف تحاول تحجيمي، وأنا التي زرعت فيك الطموح، و ربيتك على أن تسود العالم.

لكن «قمبيز» الذي لم يكن يريد أن يعكر من صفوه في تلك الساعة، قال لها:

- أنا ذاهب إلى فتح بلاد النوبة، و إخضاع الجنوب الأفريقي كله لسلطاني، وما أريد أن أرحل، وبيني وبينك هذا الشقاق.. سأصرف الحرس عن بابك، ولكن لا تحاولي أن تعيديني إلى ما كنت عليه من غضب.

لاحظت، أنه ليس في حالته الطبيعية، فهو لم يتراجع عن قرارٍ اتخذه في حياته، كانت عيناه تلمعان في غير ثبات على عكس عادته، خفق قلبها، وخشيت عليه من خطرٍ لا تعلمه، اقتربت منه، وضعت يدها على صدره.. لم يمنعها..!! قالت:

- بني، ادرس الأمر جيدًا، أخشى أن يكون ما أنت قادم عليه من حرب الصحراء، هو الخطر نفسه، وقد فقدت الكثير من جندك في بحر الرمال الأعظم.

- وهل كنت يومًا أهاب الخطر.. ما بين الحياة والموت لا أزال دائمًا أقاتل.. لأعرف أنني لازلت حيًا..

تذكرت في لحظات ما سمعته من «طاهو» عن الفتاة التي بالوفد النوبي، قالت بدهاء:

- سمعت أن ساحرة كاهنة قد حلت بقصرك، وأخشى أن يكون قد أصابك

شيء من سحرها.

انتزع يدها من على صدره باسمًا، و تحرك نحو الباب، وكأنما قد عادت إليه حالته الأولى، من الانتشاء، قال وهو يغادر المكان:

- تمنيت ذلك..

وتركها في حيرتها، لم يروِ ظمأ فضولها..، ولم يشعر بالقلق لإطلاقه لها..!! فرغم كل شيء فهي خير من يحكم البلاد، ويسيطر عليها في غيابه، كما أنها لا يمكنها خيانته فهو حلمها، لذلك أعطاها حريتها..



قريبًا من «قمبيز»

عند النهر كانت «داشيتا» تودع الوفد، حرصت على أن تكون هناك لترى «حاروز» وتضع معه الخطوط الأخيرة للخطة القادمة..

كان رغم كل شيء ثائرًا لبقائها مع «قمبيز» رافضًا لمغادرة البلاد مع رجاله خوفًا عليها، فكيف يفارقها ويتركها عند عدوها..؟ لكنها هي و العم «بويا» نجحا في إقناعه أخيرًا في العودة ليرتب كل الأمور، وخصوصًا أن ملك الفرس، قد أعلن أنه سيتحرك بالجيش بعد أيام..

قام ليودعها، كان الإحساس بالمرارة ظاهرًا في صوته ورفع «حاروز» رأسه للحظات، ونظر إلى عيني «داشيتا» التي رأت أمامها عينين سوداوين حزينتين و خاليتين من كل معاني الحياة، ثم خفض رأسه مرة أخرى، شعر بأن الأيام تفرقهما من جديد وهو الذي بنى في أحلامه عشهما المنتظر، و مضى بخياله يطوي الأيام، و عاش هذه الأحلام عيشة الواقع، حتى لم يعد يفرق بينه وبين الحقيقة.

هي أيضًا تحتاج إليه، ويؤلمها فراقه، لكن الأيام القادمة ستحدد كل شيء.

كان عليها ألا تُلفت نظر رجال «قمبيز» إلى اهتمامها بحاروز..

تحركت الزوارق ببطء فوق صفحة النيل، لم ينطق «حاروز» ولم يحاول توديعها إلا بنظرة أودعها كل ما في قلبه من أشواق، بينما عادت إلى القصر، حيث أمر لها ملك الفرس بإحضار أغراضها من بيت الضيافة و أعد لها حجرة أنيقة قريبة من جناحه..!!

مرت أيام على وجودها في قصر «قمبيز» حرص فيها أن يجعلها قريبة منه، رغم أنه لم يتحدث معها سوى كلمات قليلة خلال تلك الأيام، لكنه كان يُصر على وجودها، ربما لشعوره أنها يجب أن تكون بجانبه، وهي أيضًا كانت تحس تغيرات عنيفة في داخلها، وصراع يومي بين ما تؤمن به، وما تراه..!!

فهاهي ترى الملك الجبار، الذي طغي وأهلك أهلها وقومها، كل يومٍ في ثوب مختلف..!! يقابل وفود المصريين، ويعيد بناء ما تم تدميره، و أكثر من ذلك، فهو يعامل أطفالهم برقة، ويحنو عليهم.. ويرسل لأهالي الضحايا الطعام والكساء.؟

حتى صارت تخشى على نفسها من أن تتفتت صلابتها و تفقد تماسكها فصارت تقضي ليلها مع ذكرياتها تتابع أمامها في كل لحظة ما مر من أحداث، كأنها صور متشابكة، صياح الأطفال والأرامل.. بكاءهم عند غزو جيوشه لهم، دماء أسرتها، وفقدها لهم.. فتغلي الدماء في عروقها، وتفكر كل لحظة في الانتقام.. لكنها الآن وهي بالقرب منه، صار من دواعي الأمن ألا تحتفظ بسلاحها.. لم تعد تملك ما يشعرها بالأمان، وقد صار ما حولها في تناقض مستمر محير للعقل، فلربما تكون تلك العاطفة التي يتعامل بها معها، ومع المصريين هي من دواعي السياسة، وطريقته لاكتسابهم ، ومحاولة منه لربح حليف جديد، شعب كامل قد غزاه و حاول كثيرًا أن يقنعه، بأنه وريث حقيقي لتاريخه، وفراعنته، ومؤسس للأسرة السابعة والعشرين بعد فناء أسرتها..

أما معاملته الرقيقة لها فقد كانت هي ما أثار بداخلها الصراع، فما أكثر الأشياء

التي كانت واثقة منها قبل أن تلقاه.

بينما عادت الملكة « نيتيتس» إلى ما كانت عليه من دهائها القديم، و محاولاتها الدائمة لاستعادة المجد، وبث عيونها على كل من حولها، بينما حاولت جاهدة أن تحتفظ بما أظهره «قمبيز» نحوها من عطف، وألا تثير زوابع مخاوفه من ناحيتها، وأن تتحاشى الصدام معه، لكنها لم تنس لحظة، ما سمعته من «طاهو» عن لقاء «وزحاررسن» بتلك الفتاة النوبية قبل موته.. وأثارها أن تجدها قريبة من «قمبيز» دائمًا، وتعجبت لما يوليها من اهتمام.. ورغم هذا لم تشأ أن تتدخل في الأمر حتى لا تبدأ الصدام معه من جديد.. و لم تغفل عنها لحظة.!!



صراع في القصر

السماء تختنق بغيوم صيفية حارة.. «قمبيز» يستعد للرحيل في اتجاه الجنوب، وقد صار الجيش على أتم الاستعداد، و أصبح الزحف على «بلاد كوش» وشيكًا.. ينتظر الجميع بين عشية وضحاها أوامره بالتحرك..

لكن فضول «نيتيتس» هو أيضًا لم يعد يتحمل الانتظار.. فكل ما أرسلته من عيون، لم تنجح في أن تُشبع فضولها لمعرفة سر تلك الفتاة النوبية، فقررت المواجهة، وأن تبدأ بالزحف نحو هدفها قبل أن يغادر السهم قوسه، فقد علمت بأن «قمبيز» قرر أن تصحبه النوبية في عربته الحربية، و هذا مالم يفعله في كل معاركه حتى معها هي حين فكرت أن تصاحبه في حملته على مصر، وهكذا سيطر عليها قلقها وصارت تخشى عليه من مؤامرة مدبرة.. فخرجت تضرب طرقات القصر نحو غرفتها، وبلا استئذان دفعت الباب..!!

حاولت «داشيتا» التي أذهلتها المفاجأة الابتسام..!! وانحنت تحية للملكة.

قالت الملكة وهي تنظر لها بفضول وتدور حولها:

ـ رائعة حقًا، إنكِ أجمل بكثير مما أخبروني عنكِ، هذا جمال لم أره ألا في بنات الملوك، ليس عجيبًا أن تكوني قريبة من ابني..

أحنت «داشيتا» رأسها خجلاً لكنها لم تتخل عن حذرها، قائلة:

- مولاتي تعطيني أكثر من قدري، إلا أنني حقًا سليلة ملوك عظام حكموا قبائل النوبة.

- رائع فهذا يقرب المسافات بيننا قليلاً فيشعرني أن بإمكانك فهمي جيدا فكما تعلمين أن بنات الملوك كما يتميزون بالجمال النادر الذي أراه على وجهك وأرى أنه ليس غريبًا عليَّ وكأنك من سلالة أعرفها..!! إلا أنهم يتمتعون أيضًا بالصدق، وقد جئت لأرى إلى أي مدى تتمتعين بتلك الصفة النبيلة.

تبسمت «داشيتا» وقالت في دهاء:

- إلى القدر الذي يبث الرضا في قلب مولاتي الملكة.

دارت الملكة في الحجرة ورفعت رأسها في كبرياء قالت:

- حسنًا فلنبدأ من النهاية.. من أنتِ.؟ ولماذا أتيتِ؟

- مولاتي تعلم أنني هنا مع وفد من بلاد النوبة و قد جئنا لنطلب الأمان من ملك الفرس لقومنا.

- ربما.. لكنني كملكة لمصر، وفارس أرى أن هناك جذورًا لوجودك هنا، أكثر بكثير من وفد نوبي أتي يبحث عن أمن مرتقب.

شعرت «داشيتا» بالقلق، فهي تعلم أن الملكة أخطر من أفعى، فقررت أن تتخذ الحيطة، قالت بابتسامة مصطنعة:

- تمنيت ذلك يا مولاتي، فمصر هي أجمل بلاد الدنيا..

- نعم، و يبدو أن لكِ حلفاء فيها وأعداء أيضًا، حتى ولو كان أحدهم قد قَضى عليه رمح، وهو يحاول قتلك.

أدركت «داشيتا» أن تلك المرأة تعلم الكثير، لكن لو كانت تعلم أكثر فلما لم تخبر ابنها، ولماذا جاءت تستجوبها..؟ صمتت قليلاً، وتذكرت ما سمعته عن خبرة الملكة

في زرع رجالها لمراقبة كل مكان، وربما أن أحد عيونها رأى ما حدث و أخبرها.. لاسبيل لها سوى الإنكار.. قالت بهدوء:

- ما أعجب ما تقولين يا مولاتي، أنا ماجئت هنا إلا منذ أيام و..

نفذ صبر الملكة فصاحت:

- لا تحاولي المراوغة، ماذا كان يريد منكِ اللعين «وزحاررسن»، ولماذا حاول قتلك..؟ ورائك من الأسرار ما يدفعني لقتلك من أجل معرفته.

- من «وزحاررسن» هذا.؟ هل هو نوبي مثلي..؟ يبدو أن مولاتي اختلطت عليها الأمور، والأشخاص أيضًا.

جن جنون الملكة، وشعرت أن الفتاة تنال من غرورها وتستهزيء بذكائها، صرخت في غضب، وهجمت عليها، ورفعت يدها لكي تصفعها:

- سأسحقكِ أيتها الحشرة، إن لم تخبريني بكل شيء.

أمسكت «داشيتا» يدها بقوة وشيعتها بنظرة نارية، وهي تدفع يدها جانبًا وترفع صوتها بغضبٍ وتحدٍ:

- على مولاتي أن تتحرى قبل أن تتهم الشرفاء بتهمٍ لا يعرفون عنها شيئًا، وعليها أيضًا ألا تنسى ما قلته لها عن أنني سليلة ملوك، ودماء الملوك لاتقبل بالذل، أو أن تُرفع يدٌ على وجهها حتى لو كانت صاحبتها تملك العالم.

في تلك اللحظة انفتح الباب بقوة وكان «قمبيز» هو الذي دخل مندفعًا بعد أن أبلغه رجاله عن دخول الملكة إلى حجرة الفتاة، وسمع جملة «داشيتا» الأخيرة، ورآها وهي تدفع يد الملكة جانبًا..

كانت المرة الأولى التي يرى امرأة يعلو كبرياؤها على كبرياء أمه، ظهر في عينيه بريق الإعجاب.. بينما اندفعت «نيتيتس» الغاضبة نحوه كمن يحتمي بسلطانه

لتهلكها قالت في ثورة جنونية:

ـ كيف تتجرأين على الوقوف في وجه ملكة مصر وفارس أيتها اللعينة، من الذي دسكِ على «قمبيز» وما هي علاقتك بـ «وزحاررسن».

لم يشأ أن يسمع أكثر.. قال لأمه ببرود:

ـ مازالت الملكة العظيمة تتجرأ على كل ما يخصني، وتتدخل في شئوني دون أن تخبرني..

كانت كلماته كالصاعقة بالنسبة لها.. لم تتمالك الملكة نفسها:

ـ ما يخصك..!! وفيما تخصك تلك الحشرة النوبية، وكيف تهاجمني وتتركها، وقد رأيتها تتحداني، وتمنعني من لطمها وقد تجرأت عليَّ.

صارت نظراته نيرانًا تحرق قال:

ـ لطمها.. وكيف تلطمينها و قد قربتها مني، أليست تلك إهانة لي أنا..

ـ «قمبيز» تَعقل يا بني.. إنها محتالة مدسوسة عليك، أرسلها اللعين «وزحاررسن» فكيف تنصرها على أمك.

كانت تلك الشرارة التي أشعلت فتيل غضبه الجبار، قال في ثورة عارمة:

ـ «وزحاررسن» مازال شبح عدوك يطاردك، حتى وهو ميت.. هل تظنين أن شبحه يرسل إلينا سفراء ليقوموا بخطط لصالحه، أم أن قتلك له قد صار يطاردك مثلما فعل بي « بورديا» وها أنت قد صرت تتهمين الناس، وتبسطين سلطاتك الجنونية عليهم بسرعة غضبك وشكك وهياجك..

حاول أن يتماسك وهو يشعر بأعراض الصرع تتفاعل بداخله، فأشار لها بالخروج قائلاً:

ـ رجاءًا.. عودي إلى جناحك، وابسطي سلطانك كما تشائين على جواريكِ،

وشعبك، أما «داشيتا» فلن يكون لكِ سلطانًا عليها أبدًا..

أطرقت ولم تنبث بكلمة واحدة، فقد كانت كلماته قاطعة مانعة..!! أحست بوخز في ضميرها، وانكسار لم تشعر به من قبل.. لم تحاول أن تقاومه أو تمنعه، بل استسلمت له وأخذت تتفجر منابع دموعها.. خرجت صاغرة.

وقفت «داشيتا» في ذهول، وهي ترى هذا الدفاع العجيب عنها، دفاع من لا يريد حتى أن يفكر، وقفت تشاهد وهي متجمدة في مكانها لإعلاء الملك لها على أمه، إنه دفاع لا يصدر إلا عن محب..!! نعم إنه محب.

كان الأمر أشد قسوة على «قمبيز» وكأنه أتخذ قرارًا من جهة خارجة عن عقله، تسيطر عليه..!! جهة لم يتعامل معها من قبل.؟! وبدأت أعراض الصرع تظهر عليه، وهو وحيدًا مع «داشيتا» في غرفتها..!!

أخذت الأشياء والمناظر والأشخاص تتوالى في سرعة على عينيه المفتوحتين، كما تتوالى الذكريات الغامضة، والرؤى المرعبة، فلا تترك في حسه إلا أشباحًا وظلالاً يود الخلاص منها، وبلغ الإعياء منه كل مبلغ فاحتقن وجهه ثم ترنح في وقفته، وهو يحاول أن يتماسك، وقد تعلقت نظراته بها.. شعرت بالفزع، وهي تراه يسقط، أسرعت نحوه وقد أدركت بخبرتها الطبية، أنه مريض بالصرع.. فكان سقوطه بين ذراعيها..!! وانهالت معه على الأرض..

كانت أعصابه المتشنجة، تزيد من ثقله، ومن صعوبة تملكه، والسيطرة عليه، شعرت بأنها فترة عصيبة، تلك التي احتوته فيها، حتى سكن أخيرًا وقد أصابه الجهد، ظلت تجفف له عرقه..! نسيت الماضي كله في لحظة، وبلا شعور كانت تحنو عليه.

غرق قمبيز أخيرًا في نوم عميق، بينما ظلت «داشيتا» تحدق بوجهه الذي ينعكس عليه ضوء القمر وجبهته المتأثرة بحرارة الشمس والتي يبدو عليها بعض

التجاعيد التي توحي بأنه يحلم بأشياء غير مريحة، لمحت في وجهه مرارة، وفي قسماته وجوماً.. أخذ يهذي ببعض الكلمات.. انحنت نحوه لتسمع ما يقول فوجدته يردد كلمة « بورديا.. الدماء.. نيتيتس.. داشيتا.

لم يكن باستطاعتها أن تفعل شيئًا سوى أن تبقى كما هي.. بجواره.!! وهي تعاني من كل ما يمتزج في صدرها من صراع، فهاهو غريمها بين يديها، في أقصى لحظات ضعفه، فاقدًا لسلطانه وقوته، ووعيه.. وبإمكانها في دقائق معدودة الإجهاز عليه، بخنجره الحاد الموجود في جرابه، لكنها لم تجد في نفسها القوة لذلك، فهناك شيء بداخلها يمنعها، وهو الذي دافع عنها منذ قليل ضد أمه، كما أنها وهي الشريفة النسب، التي عاشت حياتها على المواجهة، لا يمكنها أن تغدر وتقتل رجلاً مريضًا لا وعي له، و لا يملك القوة للدفاع عن نفسه، أخذت الذكريات السود تتزاحم في رأسها وأحداث الحرب ودماء قومها وأشلائهم تتراءى لعينيها، وجراحهم و أنينهم و تأوهاتهم وحشرجتهم تصك أذنها وتمزق أعصابها، ورأت على عينيها و قلبها، وعلى ذهنها ظلام دامس.

رغم ذلك حاولت كثيرًا أن تمد يدها نحو خنجره، أن تقبض عليه .. كانت هذه المرة الأولى التي ترتعش فيها أناملها، شعرت بعاطفة جياشة نحوه، وسقط الخنجر من يدها المرتعشة، وسقطت معه دموعها، ما أضعفها الآن و قد زحفت عواطف الحب إلى قلبها وصدرها، وعقلها وتوغلت في روحها..

مرت الساعات، حتى بدأ يستعيد وعيه، وشعر حين أفاق بين ذراعيها براحة عجيبة، و أدهشها وروعها جمال البسمة التي أشرق بها وجهه.

نظرَ نحو عينيها المغرورقتين، وملامحها الوديعة الجذابة الحزينة، فإذا هي تحاول بشدّة أن تبتسم، أمسك بيديها بين يديه، وحدق في وجهها، وهو يقول:

ـ حقًا من لا يبحثون عن الحظ يجدونه دائمًا.

تخلت عن وضعها في الحال، وسرت الدماء في وجنتيها، واتخذت لونًا ورديًا سحره وغرقت في خجلها، فحاولت أن تغير الجو بابتسامة مغتصبة، وهي تسحب يديها ببطء.. لم يمنعها، وقام محاولاً الاعتدال، فتراجعت إلى الخلف..

نظر إليها في صمت، فرغم كل شيء هي الآن تعرف عنه أكثر مما يعرف الآخرون لم يشعر بالضيق لهذا الأمر.. شكرها وهو ينصرف..



الطريق إلى الواحات



الشمس الدافئة تشرق على بيوت وطرقات وقصور ومعابد منف، لكن غبار الجيش الفارسي المستعد للخروج منها كان يجعل الجو خانقًا..

المشهد رهيب..!! فهذه المرة سيقود «قمبيز» جيشه بنفسه، وقد أقسم أن يرد إهانة ملك كوش لسفرائه.. جلست «داشيتا» بجواره في عربته الحربية كما أمر، كانت ما تزال ذكرى تلك الليلة التي سقط فيها بين يديها تشغل عقلها وتتحكم في وجدانها، حاولت كثيرًا أن تطرد مشاعرها الجياشة أن تحاصر هذا الحب الذي بدأ ينمو بداخلها، أن تحرق بذوره بنيران انتقامها، وهاهي هذه المرة قد تسلحت بقوسها، و سهامها..!! فلا شيء يمنعها من حملهم الآن، وهذه حرب لا هوادة فيها، وهاهي ترى غريمها الذي نجح في أن يهز أوتار قلبها بجوارها، وهو بكامل صحته وقوته، في طريقه لإهلاك بلدها الثاني الذي تربت فيه.. عقدت العزم هذه المرة أن تكون أكثر قوة وشجاعة من سابقتها، وألا تجعل لعاطفتها مكانًا في انتقامها..

كانت جموع الشعب تملأ الميدان، تتابع العربات الحربية التي تحمل القادة، فهاهو «رامون» الفارسي العنيف يقود جيوش الميمنة، وقد حمل أخيرًا قوسًا ضخمًا وتره بيديه أمام « قمبيز» وهاهو « بيخاروس» الضخم الممتليء الطموح يقود جيوش الميسرة.. بينما توسطت عربة الملك المقدمة..

اقتربت «سيرينا» الجميلة زوجة «بيخاروس» من عربته لتودعه أحاطها بذراعيه في سعادة وقرب رأسه لتضع حول عنقه سلسلة بها تميمة للحظ.. شعر بالسعادة والثقة في نفسه حين لبسها، وانتفخ صدره في فخر بينما تابعه القائد «رامون» بنظرة سخرية واستهزاء ثم رفع رأسه في استعلاء.

صعد «قمبيز» إلى عربته الحربية، وقبل أن يجلس بجوار «داشيتا» وقف يخاطب جنده في شجاعة ، وقوة تُحرك الأحجار قائلاً:

ـ يا أسود فارس، إن خلف تلك الصحراء الواسعة، والوديان الفسيحة، والكثبان الرملية، والجبال الوعرة.. هناك قوم كسى ظلام عقولهم أجسادهم سوادًا، فأصبحوا يدَّعُون أنهم بارعون في الرمي، وأن رماحهم خُلقت لأعناقكم، و أنهم سادة حيث وجدوا.. يقولون أننا برابرة فارس، وقد غاب عن أذهانهم أنها بحدائقها المعلقة، ومياهها النقية، ونيرانها المقدسة، قد أنجبت أعتى الأجناد، وأقسى السواعد، فأروهم كيف تخترقون الصفوف، وتزلزلون العروش، وتسودون البشر.

تعالت الصيحات، وهاجت الخيول، وانطلقت العربات بإشارة منه، وسار الغبار، وتحطم سكون الصحراء..

كانت عربته في المقدمة، وقد أثارت كلماته، قائد عربته، فانطلق بها كاللهب، بينما جلس «قمبيز» بجوارها ممسكًا برمحه الضخم، فقالت له وقد أعجبها طريقته في إشعال حماس جنده رغم ما وجدت في نفسها من ضيق لسخريته من لون قومها

ـ ما أشجعك يا مولاي يبدو أنك لاتعرف الخوف.

نظر إليها متعجبًا:

ـ من لا يعرف الخوف ليس بإنسان، فالشجاعة ليس معناها أن لا نخاف ، لكنه الصمود والمواجهة في وجود الخوف.. إنه تحد للخوف بداخلنا.

أعجبها منطقه، وشعرت بأن وراء هذه الصورة الملكية الجبارة عقل يمكنها احترامه.

تحرك الجيش المهول محطمًا لسكون كل شيء، وناشرًا للخوف في كل قرية يمر عليها أو أكواخ للبسطاء.. العربات الحربية تخترق الطرقات والمدن وكأنها نيران الفرس المقدسة التي يحرق لهيبها بقايا الأمان في العالم المطمئن.

أخذ الطريق يتعرج في مسرى حلزوني تقوم على جانبيه بيوت مضطربة مبعثرة في غير انتظام، بينما كان الشريط النيلي الأزرق الذي يلمع في ضوء الشمس يبتعد تدريجيًا، وبدأ الجيش يذوب في الصحراء عندما أخذت التلال اللا متناهية تظهر وسط الهدوء والسكون، وتتحرك في رمال تحيطها جبال مترامية الأطراف..

كانت الشمس الحمراء تسرع إلى مخبئها لعلها تقضي ليلتها في أمان، بينما ازدادت حُمرة السماء، وتابعت العيون البحث عن مكان أفضل لقضاء الليلة الأولى قبل حلول الظلام..

وقف الاثنان في صمت ينظران إلى الصحراء الشاسعة وتكاملها مع الظلام في لوحة فريدة للسكون.. نزل «قمبيز» من عربته ووقف متأملا لأضواء النجوم.. فتبعته «داشيتا» في حركة تلقائية، اقتربت منه قال في صوتٍ حالم:

ـ هنا وسط هذه الصحراء يفقد المرء كل أنواع الزهو، يشعر في داخله بنوع من السماحة، ويختفي قلق هذا العالم في لمحة عين.

ـ ما أعجب أن تتحدث عن السماحة، وأنت في طريقك للانتقام.

ـ الانتقام.. أي انتقام!!

ـ نعم ألا تريد الانتقام من ملك كوش.

ـ ربما، ولكن إنها مجرد قوة دافعة لتحقيق أحد أحلامي.

لاحظ علامات الاستفهام التي ظهرت على ملامحها، أكمل حديثه:

ـ لا تتعجبي يا «داشيتا» فأنا من النوع الذي يُصر على تحقيق حلمه حتى بعد أن يغادر فراشه..

صمت لحظة ثم نظر لها بقوة قائلاً:

ـ وقد حلِمتُ بأن أمتلك كل هذا العالم..

قالت في ضيق:

ـ ياله من حلمٍ ثقيل، سيدفع الكثير ثمنه..

ـ ربما.. ولكنه يوحد العالم تحت قيادة واحدة، هي الأفضل بالطبع..

ـ والضحايا من البسطاء والضعفاء..؟

ـ لا تفكري كثيرًا في هؤلاء، إنهم كالزرع الذي ينحني للعاصفة التي تحطم كل ما يرتفع من أشجار، ثم يتحولون بالتبعية إلى خدمة من يسيطر، فهذا يا عزيزتي هو تحدي الأقوياء.

ـ ألم تفكر في الخراب الذي تجره الحروب، والويلات التي يعيشها الضحايا.

ـ كل هذا ثمن بسيط حين يريد بطل أن يوحد الأمم، فالحياة صراع متواصل من أجل هدف أسمى و ليس هناك لذة فيها تعادل لذة اشتباك نصال السيوف، كالأفاعي.. وما لمعان الحديد إلا وهج شهوته إلى شرب الدماء، فليس في الأرض شيء أدعى للسرور كالإرادة القوية السامية، لأنها أشرف ما ينبت التراب.

شعرت بالرعب، وهي تتخيل كم من الضحايا مطلوب سفك دمائهم ليتحقق مثل هذا الحلم البشع، وتلك الشهوة للدماء التي يغلفها في ثوب من الشجاعة وقوة الإرادة.. أطبقت بأصابعها على قوسها في محاولة للتمسك بشيء من العزيمة، ضغطت بقوة على أسنانها، أعطته ظهرها، و تركته وهو في ذهول من انسحابها

المفاجئ.. أسرعت تبتعد.. فليس من السهل تحمل أحلام الطغاة..

سارت وسط ظلام الصحراء، و قد انسابت دموعها كالشلال، وهي ترى وجه زوجها الغارق في دمائه النبيلة وسط المعركة، أخذت تتعرقل في الرمال، وكأنها تتعرقل في جثث من ماتوا من ضحاياه، كان القمر الشاهد يتابعها، يسير معها، كأنما يراقب ضميرها، ويذكرها..!!

أقسمت ساعتها أن تحطم كبرياء المنتصر، أن تنهي أحلامه، ولا تسمح لقلبها بالسيطرة على انتقامها.

شعرت كم هي وحيدة في تلك الصحراء القاسية، وكم أصبحت بحاجة إلى قلبٍ حقيقي يحتويها، يُشعرها بالأمان، وبمذاق الرحمة، والعطف، والعدل، والحب..!! لا تدري لماذا وجدت أمام عينيها صورة «حاروز» تخترق ظلام نفسها، وتتلألأ وسط نجوم سماءها المظلمة، وبدأت تشهد تفجر ينابيع الحس واللهفة في داخل قلبها الجريح..، عادت إلى خيمتها بعد أكثر من ساعة، وهي منهكة، لم تلحظ وجود «قمبيز» الذي لا يزال ساهرًا في قلق المحب يشاهد شرودها، وحزنها الذي لايعرف له سببًا.. رغم أنها مرت من أمامه..!

ارتمت على فراشها مجهدة، وراحت في نومٍ عميق.. أخذت في أحلامها تنادي «حاروز» باحثة عن الأمان.. فيرتد إليها صوتها شريدًا ممزقًا..

بعد أيام كان الجيش قد وصل إلى الواحات، وفي استقبالهم وقف العم «بويا» مرحبًا، وقد أعد ما أمكنه من مؤنة وماء لهم حسب الاتفاق، وحينما رأى «داشيتا» شعر بفرح وسعادة غامرة، وأسرع أطفال الواحة يلتفون حولها في سعادة، واحتضنتها الفتايات ، وعاملها الجميع باحترام بالغ وكأنها كبيرتهم حقًا رغم أنهم كانوا يرونها للمرة الأولى، ولكن العم «بويا» دربهم على ذلك، مما جعل «قمبيز» وكل من معه يطمئنون تمامًا أن تلك هي قبيلتها ويثقون أكثر فيما خططوا له مع

الوفد النوبي.. بينما أعد رجال الواحة لقمبيز وكبار قادرته مائدة عظيمة، وقضى الجميع ليلتهم بين الطعام والشراب، والمرح لكن « قمبيز» ظل متعجبًا وهو يراقب ارتباط «داشيتا بالأطفال الذين احتوتهم وجلست بينهم تلاعبهم وتحكي لهم الحكايات، تبسم ساعتها، وتذكر أمه «نيتيتس» التي كانت تحتويه بين أحضانها كل ليلة وتحكي له الكثير من الحكايات المليئة بقيم البطولة وفضائل النصر والتملك، تغرس فيه كل ما يمكن أن يغرس إنسان في أرض خصبة، وتقف كظله لترقب نتاج ما غرسته.

لم يجد في نفسه القوة للبقاء متابعًا فقد هاجمته كل أنواع الذكريات، وآوى إلى فراشه..

لم ينتظر هناك أكثر من ليلة ليريح جنده، رغم اعتراض «رامون» قائد الميمنة الذي كان يريد البقاء يومًا آخر لتجنيد مجموعة من رجال الواحات، وتسخيرهم لخدمة الجيش، لكن «قمبيز» الذي ذكرته «داشيتا» بوعده بألا يدفع برجال الواحة لقتال أهلهم في الجنوب.. أصر على أن يتحرك الجيش على الفور معلنًا أنه يسابق الزمن ليصل إلى هدفه، و لا يرغب في أن يركن رجاله إلى الراحة فينطفيء حماسهم قبل أن يخوضوا المعركة.. وأخيرا خضع «رامون» الذي لم يقتنع بوجهة نظر الملك، ولكن على مضض.

في الصباح وقف رجال القبائل في كل مكان يحملون الماء لسقايتهم، ويضعون جرار الماء على ظهور الدواب التي ستحملها.. مما ملأ قلب «قمبيز» بالسعادة، وشعر باقتراب النصر، لكنه أراد أن يتحرك الجيش ففتح باب عربته الحربية، وأشار إلى «داشيتا» لتركب بجواره فتبسمت شاكرة وهي تتراجع قائلة:

- مولاي لقد أديت دوري، وهذه قريتي و ذاك مكاني وقد رأيت بنفسك ولاء قومي.. ورأينا من عفوك وتسامحك ما أسرنا.. أما ما هو قادم بعد تلك الواحة فهي

حربك وليست حربي، فلما بقائي فيها.

أذهلته المفاجأة، فما كان يتخيل بعد أن ارتبط قلبه بها أن تنسحب من عالمه بتلك البساطة قال على الفور:

- لا لن أتركك هنا ستأتين معي.

ظهرت الدهشة على وجه العم «بويا» وعلى وجه «رامون» بينما شعرت «داشيتا» ببعض الرهبة لكنه أكمل قائلاً :

- أنتِ دليلنا حتى بلاد كوش وليس إلى الواحات فقط، وقد أوليتك شرف رفقتي في عربتي الحربية، وأنا فقط الذي أحدد متى تبقين ومتى تغادرين.. قالها، وأعطاهم ظهره وهو يشير لجيشه بالتحرك.. فلم تجد بدًا من أن تصعد إلى العربة الحربية، وبينما الجيش كان يختفي عن عيون أهل الواحة كان قلق العم «بويا» عليها يتزايد، فقد كانت الخطة أن تبقى معهم ، ويتحرك الجيش في الاتجاه المرسوم له، لكن إصرار «قمبيز» على أن تُكمل الطريق معه قد يعرضها للخطر.. بل ربما للموت.

وهكذا كان الجيش يبدأ بالمسير عندما يطلع الفجر، ثم يتوالى سيره طوال النهار حتى تضطره حرارة الشمس الحامية إلى الراحة و الاستظلال للتزود بالطعام والماء ثم يتابع السير ثانية، حتى اقتربوا من واحة سيوة..

في ساعة الغروب استراح الجيش في منطقة ظليلة مليئة بأشجار النخيل و رغم أن الرياح اشتدت لدرجة غير محتملة، أمر «قمبيز» بالمبيت هناك حتى الصباح.. قالت «داشيتا» وهي تنزل من العربة الحربية:

- كونوا على حذر فهذه منطقة مليئة بالوحوش الضارية..

ضحك «قمبيز» مشيرًا إلى كبار رجال الجيش:

- إذًا فقد وجد رجالي عشاءهم.

ضحكوا جميعًا وارتفعت أصواتهم بالنكات والسخرية..

قالت بصوت هامس وكأنما تحدث نفسها:

- صدقت فهم أقسى قلوبًا من الوحوش.

ورغم ذلك فقد تقدم «بيخاروس» قائد الميسرة نحو «قمبيز» قائلاً:

- مولاي، لما الراحة وهذه ليلة مقمرة، ومن السهل على الجيش أن يكمل سيره ويتعرف على الطريق، وبهذا نستفيد من فترة الليل، واختفاء الشمس الحارقة، في التقدم لمسافة كبيرة دون عطش.

لكن «قمبيز» رفض الأمر في حدة، وقال وهو ينزل من عربته:

- أنت تعلم يا «بيخاروس» أنني أحب أن أواجه كل شيء، حتى حرارة الشمس، ولا تقلق فقد زودنا أهل الواحات بالكثير من الماء، كما أن في طريقنا الكثير من القبائل، و الجيوش الذي سيصير كل ما لديها غنائم لنا.

تبسم «بيخاروس» وأعجبه ثقة سيده في النصر، وهو الذي كان دائم الانبهار به، ومن أشد المخلصين له أيضًا.. أما «ريمون» الذي كان يطمع في أن يحصل على بعض الخدم، والجواري، من أهل الواحات كان ضيقه يزداد لعدم اهتمام «قمبيز» بمشاورته كما كان يفعل في فتوحاته القديمة، وكأنما اكتفى باتفاقه مع تلك النوبية التي تدلهم على الطريق، و التي شاع بين الجند أنها ساحرة، وكاهنة أيضًا.. حتى أنه بدأ يشعر بأن سحرها يسيطر على مَلكهم، ووجد في نفسه رغبة شديدة في التخلص منها عند أول فرصة قادمة.



سهم في القلب



هدأت الرياح قليلاً، وملأ القمر بضوئه صفحة السماء، بعد اكتماله لاستدارته.. خرج «قمبيز» من خيمته، سائرًا وسط هذا الجو الساحر، وقد وجد في نفسه لهفة إلى رؤيتها.. لم يجدها في خيمتها، فمشى باحثًا عنها، كان يعرف أنه سيجدها وسط الأشجار بعيدًا عن الجيش، فتلك طبيعتها منذ تحرك بجيشه من منف، وهذا ما يجعل في نفسه خوفًا عليها، وحرصًا على ألا يصيبها سوء.. أخيرًا وجدها.. كانت جالسة بالقرب من عين ماء، وقد أشعلت بعض أفرع الأشجار الجافة، ووجهها متجهًا نحو السماء، تراقب النجوم، وهي تردد أغنية حزينة هادئة بصوت رقيق عذب، ولغة نوبية لا يعرفها..

شعر في نفسه بسعادة غامرة، وصفاء لا مثيل له.. تقدم نحوها، رأت شبحه يقترب من بعيد ظنته شخصًا آخر فقطعت غناءها، و في سرعة أذهلته قفزت نحو قوسها ووجهت نحوه أحد سهامها..

وقف ثابتًا في مكانه.. قال لها باسمًا:

- « داشيتا» هذا أنا «قمبيز»..!! أيتها الساحرة في كل شيء..

سمعته جيدًا، وعرفته من أنفاسه قبل حتى أن ينطق بصوته.. كانت لحظات فاصلة في حياتها، وفي عزيمتها التي تشبثت بها، فهاهو الآن قد جاءها بأقدامه وحيدًا.. بعيدًا عن جيشه، خاليًا من

سطوته، مادا ذراعيه باستسلام العاشق، و لا يمكن أن يخطئه سهمها القاتل هذه المرة..!!



و في سرعة أذهلته قفزت نحو قوسها ووجهت نحوه أحد سهامها

مرت ثواني وهي ثابتة، كتمثال صلب من الخارج، هش من الداخل، تحاول استدعاء الذكريات السود لتشحذ عزيمتها دون فائدة.. ترقرقت في عينيها دمعة محتبسة، كادت تتخاذل، فاشتدت قبضتها على قوسها، وضغطت على أناملها المترددة..

أذهله ثباتها، وعدم تراجعها عند سماعها باسمه، ثواني قليلة لكنها مرت كدهور، لم ينطق لكن عيونه تقلبت بين عينيها ونصل السهم المصوب نحوه.. للحظة شعر بأنها نهايته..

في تلك الأثناء كانت هناك عيون أخرى أشد تربصًا به، وأكثر شراسة، ولم يكن يفصله عنها سوى مسافة أقل بكثير من المسافة الفاصلة بينها وبينه.. رأته «داشيتا» في جزء من الثانيّة، وفي اللحظة الحاسمة، كانت قد أطلقت السهم دون أن تعطي نفسها فرصة للتردد، أو الحساب.!! وانطلق السهم المسموم يشق الهواء بالقرب من «قمبيز» نحو هدف لا يمكن أن يخطئه.. أصابه الهلع، وهو يشاهد السهم المنطلق نحوه.. من قوس من أحب..!!

لكنه أفاق من ذهوله، وهو يرى النمر الشرس الذي يسقط فوقه، وهو مضرج بدمائه بعد أن مرق السهم في عنقه..!! قفز إلى الخلف قبل أن تصيبه مخالبه، وأخرج سيفه، وبضربة خاطفة كان قد أجهز عليه.

أسرع نحوها يضمها إليه في سعادة، بعد أن أنقذت حياته.. لم تستطع أن تمنعه.!! وأسلمت رأسها إلى صدره.. أذهله دموعها التي تغرق وجنتيها..!

شعر بسعادة غامرة، وبحبها يخترق قلبه، وينفذ إلى أعماقه، و لأول مرة أحس أنه يمتلك العالم بالفعل.. أما هي فقد وجدت نفسها كعود القش الذي تتلاعب به رياح الحب..

كانت عيون «رامون» الذي وصل متأخرًا تتابع اللحظات الأخيرة.. رآهما

وقد عادا معًا إلى خيام الجيش، لم ينس « قمبيز » أن يجرد النمر من فراءه، وعند باب خيمتها، أهداه لها، فهو صيدها..

أما «رامون» فلم ينم ليلته، وهو يرى أن علاقة ملكه تتطور مع تلك الساحرة التي تقودهم إلى المجهول.. فازداد حقدًا وحنقًا عليها.

مع شروق الشمس قاد «قمبيز» جنوده داخل الصحراء، المنبسطة الممتدة إلى مدى البصر، تاركًا خلفه تلك الواحة الظليلة كثيرة الأشجار التي كان سيقضي فيها نحبه بالأمس لولا سهامها التي لا تخطيء، كان يحمل في داخله نحوها حبًا لا حدود له، رغم حيرته في صمتها، وحزنها الدفين الذي يكاد يفتك بفؤادها..

جحظت عينا « قمبيز » وهو يرسل بصره إلى بحرٍ من الرمال الناعمة الملتهبة نهارًا بحرارة الشمس، قال وهو يتذكر ما فقد من جنده في هذه الرمال بالقرب من سيوة:

ـ هنا التحدي الحقيقي ما بين الإنسان، والطبيعة الهائجة.

ثم التفت نحو «رامون» وقال علينا الحذر، واجعل الجنود يسيرون في صفوف متباعدة، وليقترب أكبر جزء من الجيش نحو المنطقة الصخرية.

في هذه الأثناء أشتد زئير الريح، وهبت العاصفة الرملية من حيث لا يدرون فكل ما شعروا به بعد دقيقة من هبوب الرياح أن الصحراء نفضت عن نفسها ملايين الأطنان من الرمال وحجبت الشمس، وجعلت الهواء سقيما، حيث كانت الرمال الناعمة تتسلل إلى الطعام، والشراب، والعيون، والأنوف، والجنود يغمغمون ويتذمرون، حقًا للصحراء قواها الخفية..

كانت قوة العاصفة تشتد لحظة بعد لحظة، قوتها تفوق الخيال..!! تطيح بالعجلات الحربية، وتزحزح الأرض تحت أقدام الجنود والخيول..!! تلعب بمصائرهم، وكأنهم أوراق الشجر في فصل الخريف وتُسقط بها شاءت من العربات أسفل الوادي..

حاول «قمبيز» السيطرة على جيشه، وسط الرياح العاتية التي تعيق مسيره، بينما «أحكم « بيخاروس» قبضته على جنود الميسرة، وهم الأقرب لبحر الرمال، ودفعهم إلى الاحتماء بعربات المؤنة، ودفعها بقوة أمامهم حتى لا تضيع في الرمال الناعمة، و «رامون» كان يقود الجنود بعنف ووعيد شديد للمتخاذل والخائف، ملبيًا بذلك لأوامر «قمبيز الذي نجح أخيرًا في الوصول بجيشه إلى منطقة جبلية لتحجب بعضًا من أكوام الرمال التي تطيح بكل ما في طريقها، ومرت فترة الظهيرة كاملة في هذا الصراع الشديد، بين الموت والحياة، فقد فيها أكثر من خمسين جنديًا حياتهم..

وفجأة هدأت ثورة الريح كما بدأت، وساد الصمت، وكأن كل ما حدث لم يكن سوى كابوس طويل مروع.. تابع بعدها الجيش سيره وسط الجبال بعيدًا عن بحر الرمال.



انهيار الأسطورة

استراح الجنود أخيرًا بعد ليلة لا هوادة فيها، وصراع عنيف بين قوى لا يمكنهم هزيمتها أو السيطرة عليها.. ظلوا بعدها يحصون ما فقدوا من خسائر وهم يصلحون ما تحطم من العربات حتى بدأ التعب يسيطر على الجميع، وأخذت الحركة الدءوب تركن إلى السكون..

لكن عيونًا حذرة كانت لا تزال تتابع، وترصد كل خطوة لهذا الجيش الضخم وتنتهز الفرصة كل مساء لتنهي مهمة ليست بسهلة..!! إنها عيون «حاروز» ورجاله الأشداء.. فمنذ وصول الجيش الفارسي إلى الواحات وهم يتابعونه..!!

يسيرون النهار، بين الجبال والوديان بمحاذاة الجيش حتى إذا ما وصلوا ليلاً إلى مكان استراحته، وإلى مؤخرته بالتحديد حيث قوافل المؤن عمل هو ومن معه على فك رباط الدواب المحملة بالطعام، وتحريك ما استطاعوا منها نحو الوادي، ثم الاختفاء مرة أخرى بين الجبال، ومتابعة الجيش في انتظار ظلام ليلة قادمة ليكملوا ما بدأوه في الليلة السابقة، وفي كل صباح حين تشتعل شمس النهار فوق الرءوس، وتجعل الرمال كالجمر بلهيب حرارتها يجد الجند أن الكثير من قوافل المؤن بما تحمله من طعام وماء قد ضلت، وسقط بعضًا منها في الوادي العميق، و يدب الهرج والمرج

بين الجند فتنطلق الجموع الجائعة تبحث عن أقواتها في جنون وسط صحراء مقفلة وجبال صماء وأودية عميقة.. وفي كل مرة كان شك «رامون» يزداد، ويرجع اختفاء الطعام إلى سحر تلك الساحرة..

خلال أيام، وبعد أن كادت قوافل المؤن تنتهي تمامًا، ويشتد اندفاع جيش الفرس، بحثًا عن قرية قريبة يستولون عليها، وينهشون أقواتها ليعوضوا ما فقدوه، كان على «حاروز» أن ينحدر هو ومن معه من الرجال في ذلك الوادي الصغير، وأن يسلكوا شِعبًا ضيقًا لكي يصلوا إلى جانبه الآخر، ليقضي هو ومن معه الليل تقدمًا في الدروب بين الجبال والرمال بخفة من ولدوا في الصحراء، وذلك ليسبقوا الجيش الجائع الثقيل الحركة بأعداده الهائلة مهما دفعه الجوع للإسراع..!!

وكلما وصل «حاروز» إلى إحدى القرى الموجودة في الطريق أبلغهم باقتراب وصول جيش الفرس إليهم، و بأوامر ملك بلاد كوش بالتراجع نحو الجنوب، حيث أعد لهم ما يكفيهم من خير ونعيم، بشرط أن يحملوا معهم كل شيء يؤكل ويقومون بحرق الأشجار المثمرة المتبقية في القرية، وردم آبار الماء..

حاول «قمبيز» أن يعيد إلى صدره السكينة التي أفسحت مكانها لعواصف القلق.

و أن يخفي مشاعره باستخدام كلمات قاسية خالية من الود، و أوامر غاضبة، ووعيد شديد لمن يخالف أوامره من جنده، بعد أن أمر «رامون» القاسي الطبع بتقسيم ما بقي من طعام، وشراب بين الجند، فلم يعد هناك أمل أمامه في الحياة إلا بنصر ساحق..!! نسي في غضبته، واندفاع قيادته «داشيتا» الجالسة بجواره.!! أو ربما حاول أن يتناساها، وهو يراها قد لجأت إلى صمتها، وسكونها، وشعر أيضًا بسعادة متشفية في نظراتها لما آل إليه جيشه الجائع، المنطلق في جنون، لم يحاول عتابها، فهؤلاء قومها رغم كل شيء، وعليه أن يتحدى الجوع والعطش، ويصل في أسرع وقت إلى

النصر..

لكن «رامون» الذي أصبح متربصًا بها، وقد شعر بأنها هي وحدها التي وراء كل هذا الشر المحيط بهم، قد قرر أن يقتلها، ووجد الفرصة سانحة، بانشغال «قمبيز» عنها في السيطرة على جيشه الذي بدأت علامات التذمر تظهر عليه.

لم تكن «داشيتا» غافلة عن نظرات الحقد والكراهية التي يحيطها بها «رامون» منذ البداية، وصارت تخشاه، وتشعر بأن صبره قد فرغ، منذ رأته يراقبها هي و«قمبيز» يوم أنقذته من النمر، يومها شعرت بأن الخطر يحيطها، وازدادت حرصًا على حرص بل صارت تتجنب الوجود بجوار «قمبيز» في أغلب الأوقات التي يستريح فيها الجند، وفي أحيان أخرى كانت تشعر بأن المكان الوحيد الأكثر أمنًا هو أن تكون بجواره، وبينما هي في طريقها إلى خيمتها في مساء أحد الأيام عند استراحة الجيش وقد تركت سلاحها فيها، امتدت يد «رامون» المختبيء خلف الخيمة لتكمم فمها، وتكتم صرختها، حاولت بصعوبة الإفلات منه، لكنه كان قويا إلى حد كبير.. ضغط على فمها بقوة، و هو يكبلها بيديه، ويسحبها خلف صخور الجبال، بعيدًا عن العيون، و عندما تأكد له أنه ابتعد بما يكفي، وأن صوتها لن يصل إلى الجيش، ألقاها على الأرض بقوة، ونزع سيفه الضخم من غمده، وهو يطلق ضحكته الساخرة قائلاً:

- سأنهي سحرك بسيفي، بعد أن كاد يقضي علينا..

شعرت «داشيتا» بأنه لا مفر من الموت، مهما حاولت التماسك.. وفي محاولة يائسة قبضت بكومة من الرمال و ألقتها في وجهه فأصابت عينيه، وكانت فرصتها الأخيرة هي الفرار والجري بأقصى سرعتها وسط الجبال بعيدًا و أخذت تصرخ مستنجدة، وهو يلاحقها بإصرار، ولكنها كانت قد ابتعدت كثيرًا عن الجيش، ولم يسمع صوتها سوى صخور الجبال الصماء، لكن «رامون» الذي بدأ يُدرك أنها أخف

و أسرع منه، لم يجد حيلة سوى أن يقذفها بالصخور، وهو يجري خلفها، و كان حظه موفقًا حين أصابت قدمها صخرة، فسقطت على الأرض متألمة، مما أتاح له الفرصة للحاق بها وقبل أن يرفع سيفه ليقضي عليها سمع صوتًا خلفه يقول:

ـ أتتجرأ على قتل امرأة أيها النذل الجبان..

وقفت كل شعرة في رأسه من هول المفاجأة، والتفت في فزع، ليرى أمامه سيفًا موجهًا نحو عنقه.. تراجع خطوات ليستعد للمواجهة، بينما أعطاه «حاروز» فرصته ولم يشأ أن يقضي عليه مباشرةً، رغم أن هذا كان أسهل شيء ساعتها، لكنه أكمل حديثه قائلاً:

ـ قم وواجه الرجال إن كانت لديك الشجاعة..

اعتدلت «داشيتا» وقلبها يرفرف من السعادة، وهي ترى «حاروز» منقذها الدائم، يأتي إليها في أقسى و أشد لحظات حياتها، بعد أن سمع صراخها، هو ورجاله، وهم يتخفون وسط الصخور ليصلوا إلى مؤخرة الجيش كعادتهم، لكنه حين تعرف على صوتها، أخذ يجري نحو الصوت في جنون، حتى أن رجاله لم يلحقوا به، ووصل في تلك اللحظة الفاصلة..

هجم عليه «رامون» بسفيه بقوة لكن «حاروز» قفز برشاقة إلى الخلف، وعاجله بضربة قوية، تلقاها «رامون» بسيفه، وهو يهجم عليه كالثور.. لكن «حاروز» الذي أراد أن يستفيد من غضبه ليجعل ضرباته تزداد طيشًا قال له:



وقفت كل شعرة في رأسه من هول المفاجأة، والتفت في فزع، ليرى أمامه سيفًا موجهًا نحو عنقه.

- كنت أظن أن سواعد الفرس أقوى من سواعد نساء النوبة.. هيا أيها العصفور الضخم، أرني إن كان لديك شيء أفضل.!

أشعلت تلك الكلمات ثورة «رامون» فأخذ يضرب بقوة كالمجنون، وفي كل مرة كان سيفه يطيش، أمام رشاقة «حاروز» وفنه في صد الضربات، كان رجال «حاروز» قد وصلوا في أثناء المبارزة، وبإشارة منه تراجعوا ولم يجرؤا على الاقتراب، فهذا نزال بين متنافسين.

وحينما أراد البطل أن يضع النهاية قال، وهو يضرب ضربته القاضية:

- الآن أريك كيف أنتقم ممن تجرأ على المساس بقلبي.

قالها، وتهاوى جسد «رامون» على الأرض ليلحق برأسه الذي سبقه متدحرجًا نحو الصخور.

هتف قلب «داشيتا» ملبيًا عند سماعها لكلمته الأخيرة.. قامت ملبية لنداء يده الممدودة إليها، قالت ودموعها تسبقها:

- لم أكن أحلم أن أراك يا حارسي.

- لكن هذا كان حلمي في كل لحظة.

- اشتقت إليك كثيرًا يا «حاروز» لقد شعرت بأنني أسير وسط غابات من وحوش لا ينتمون إلى البشر، إنهم جميعًا يملكون قلوبا غليظة أقسى من الصخور، ولولا شعوري بقلبك يحيطني بحبه وحنانه لكانت الحياة بلا حياة.

«قالتها وهي تضع رأسها على صدره».

لم يكن «حاروز» يحتاج لأكثر من هذا ليشعر أن قلبه يرفرف ويطير وكأنما نبتت له أجنحة من نور، لم يكن يحتاج لأكثر من تلك البسمة التي ملئت وجهها ليجد في نفسه القوة التي يمكنه بها أن يتحدى بها العالم..

رفعت رأسها في هدوء و بدأت تنفلت كمن ينسحب من موطن ضعفه..!!

قالت له مودعة:

ـ والآن يجب أن أعود قبل أن يكتشف «قمبيز» ورجاله غيابي..

لم يستطع أن يفارق يدها، قبض عليها وهو يقول:

ـ لا آمن عليكِ بينهم، بعد أن حاول هذا قتلك، تعالي معي فقد أديتِ أهم جزء في مهمتك، والباقي هو دوري أنا، وأنا أعرفه جيدًا، وقادر على القيام به على أحسن وجه..

سحبت يدها من يده باسمة:

ـ مازال الجزء الأهم متبقيًا، فلا أريده أن يتراجع قبل أن تدمره صحراؤنا.. وأنت أيضًا بقيت أمامك المهمة الأكثر خطورة..كن حذرًا واحرص على أن تخفي جثة «رامون» فهو قائد الميمنة، و سيُجن جنونهم لفقده.

ـ لا تقلقي فلسنا بحاجة إلى إخفائها، لو أخفيناها لما تحرك هذا الجيش من مكانه قبل أن يجد في البحث للوصول إلينا، فهم يعانون الجوع والخوف من أشباح لا يرونها، تخطف طعامهم، وتسكب ماءهم..

ـ وماذا ستفعل إذًا..

ـ رجالي سيحملون جثته إلى أقرب مكان للجيش، أما رأسه فأنا أعرف أين أضعها، وسيظن « قمبيز» أن ما حدث هو خلاف في جيشه، وصراع بين قادته.

ـ أنت محق تمامًا، ولكن كن حذرًا.. وداعًا.

ـ لكن.. لن أتركك فأنت ..

وضعت يدها على فمه:

ـ لا تقل شيئًا، فقد قلت كل شيء منذ قليل..

قالتها، وأسرعت تعدو بين الصخور في اتجاه الجيش.. أسرع خلفها ليحميها، فأشارت له مودعة.. راقبها من بعيد حتى اطمأن على وصولها إلى خيمتها..عاد بعدها، وقام هو ورجاله بحمل جثة «رامون».

في الصباح كان « قمبيز» في قمة ثورته عند اكتشافه لاختفاء قائد الميمنة، وبذل الجميع جهودهم بحثًا عنه دون فائدة.. دب الخوف والفزع في كل أفراد الجيش.. شعروا أنهم يحاربون عدوًا خفيًا، لكن «بيخاروس» وحده هو الذي شعر بالسعادة والراحة لتخلصه من غريمه المتغطرس.. وهو يجد نفسه أخيرًا القائد الوحيد المسئول عن الجيش بعد ملك الفرس، أخذ يداعب قلادة الحظ المعلقة في رقبته، ويتذكر زوجته الجميلة، وتخيل نفسه وهو عائد إليها يقود أعظم جيش في العالم، وعلى الفور بدأ يفرض سيطرته على كل شيء، وقد لاحظ «قمبيز» ذلك وبدأ يشك أنه وراء اختفاء «رامون» وحرص على أن يضع رقابته عليه، خاصة حين وجد الجند رأس «رامون» بين الصخور في مكان قريب من خيمة « بيخاروس» الذي عند رؤيته للرأس شعر بشيء من الرعب، وغرق في عرقه كمن غاص في بحرٍ من الماء، لكن «قمبيز» الذي خاف أن يفقد الجيش تماسكه وعد بالتحقيق في مقتل «رامون» وبدأ يصدر أوامره الشديدة الصارمة للجيش بالتحرك في أقصى سرعة، بعد أن وضع القائد «سباركيتن» قائدًا للميمنة، وما أراد بذلك إلا أن يفقد «بيخاروس» فرحته، ويعلمه أن الأمر لا يمكنه أن يتزعزع من يده.. مما أشعل نيران حقده التي لم تتعد ظلمة الليل وانطفأت عند أول ضوء، بعدما أقنع نفسه بأن تميمة الحظ أنقذته من موت محقق واتهام بقتل «رامون» وفي الصباح كان يقوم بدوره في تحريك الجيش وقيادة الميسرة، وتوزيع ما تبقى من حصص الطعام على الجند، وذلك اتباعًا لأوامر «سباركتين».

ونفذ مخزون الطعام، ونفذ معه صبر الجنود، واشتد غضب، وحيرة «قمبيز» واستمر الجيش في المسير إلى أن ظهرت قبل غروب الشمس على البعد واحة كثيرة

النخل.. وكان ظهورها كفيلا بأن يزيد من اندفاع الجيش نحوها، حتى أنهم وصلوها عند حلول الظلام..

كانت لحظات صادمة بحق، أن يرى الجائع العطشان واحة ظليلة يحيطها النخيل، وحينما يصلها، يجدها خرابًا محترقة الأشجار خالية من الثمار، مردومة الآبار.. كل هذا كان كفيلا بتحطيم ما تبقى من معنويات الجيش.، وقضى الجند ليلهم في محاولات يائسة لحفر الآبار المردومة والوصول لبعض الماء الملوث بالتراب، ففيه المحافظة على الحياة.. ومع مرور الأيام تكرر الأمر، و ما زاد «قمبيز» جنونًا وجعل نوبات الصرع تزداد عليه ليلاً وهو في خيمته وحيدًا هو أنه كلما مر جنوده بقرية أو مدينة، لم يجدوا جندًا يحاربونهم، لاشيء.. سوى أشجار محترقة، وبيوت خاوية، وبعض العجزة والمرضى ممن تركهم «حاروز» ليخدعوا الجيش، بقولهم:

- أن جيوش ملك كوش وكل الرجال الأقوياء يحرقون قُراهم ويفرون خوفًا ورعبًا كلما سمعوا بقدوم جيش قمبيز..

فيزداد حينها اندفاعًا بجنده لعله يلحق بالجيش الفار ويسحقه، فيكون ما معهم من طعام قوتًا له هو وجنده، فيكمل ساعتها سيره وهجومه ليؤكد نصره واستيلائه على البلاد..

لكن الاندفاع كان وسط صحراء لا تعرف الرحمة، بمن لا يرحم.. و أخذ الجوع والعطش في إهلاك الجنود و الخيل، والنيل منهم، قبل أن تصل سيوفهم ورماحهم إلى شيء من هدفها. ولم يبق أمامهم طعام سوى ما تبقى من ورق الأشجار المحترقة، والأشواك الحادة..

بدأ «قمبيز» في الانهيار، و خارت عزيمته، وهو ينظر إلى ما تبقى من صحراء في اتجاه الجنوب، ويراقب نظرات التمرد في عيون جنده.. كان عليه أن يتخذ قرارًا

آخر، قرارًا فاصلاً بين الحياة والموت، قرارًا لم يجرؤ على اتخاذه يومًا.. إنه قرار التراجع والعودة..

تلك العودة التي سيدفع ثمنها غاليًا، فهو يعرف أن طعام جنده سيكون ساعتها هو لحوم خيولهم، وربما يقترعون ليأكل كل عشرة واحدًا منهم.. يالها من هزيمة.. هزيمة بعد معركة طويلة، لم يُشهر فيها سيفًا..!! ولم يقف في وجهه جيشًا إنها الصحراء تهزمه مرة أخرى.. أطلق أوامره بذلك إلى «بيخاروس» الذي كان ساعتها قد وصل إلى أعلى مراحل اليأس، والإرهاق.. فلم يجد مفرًا من تنفيذ الأمر، وبدأ الانسحاب والتراجع..

كان الليل قد بدأ يُرخي سدوله وتتمشى في الجو وحشة تبعث الانقباض والاضطراب، و كان عليه أن يستمع أخيرًا إلى رأي «بيخاروس» و يربح الليل في العودة، قبل أن تأتي الشمس لتلهب حناجر جنده بالعطش..

قالها في مرارة:

ـ الزحف ليلاً كما تفعل الذئاب الجائعة المذعورة..

رآها واقفة أمامه، وفي عينيها نظرات النصر.. وابتسامة السخرية..

نظر إليها بقلق حذر.. أصابه الذهول، وغامت الدنيا في عينيه، وتوقّع شراً غامضاً يوشك أن ينقض، إنه شيء أقسى من هزيمة الصحراء له، بل شعر بالكارثة تظلله، وتغشى حياته، ولكنه تماسك..

نهض وتقدم ببضع خطوات نحوها، كانت الأفكار تموج في رأسه تتدفق وتندفع، مد يده نحوها قائلاً:

ـ أنا عائد يا «داشيتا».. كلنا عائدون، قبل أن تهلكنا الصحراء.. لماذا تبتعدين عني..؟ ألن تأتِ معي.

ـ وحلمك، ألن تكمله أيها الفاتح العظيم..؟ ألن تمتلك العالم أيها الرجل

الأفضل.. هيا فما زالت هناك شعوبًا لم تُذبح تنتظر سيفك المُسلط على رقاب ضعفائها..

أفاق من ذهوله على لهجتها القاسية، فقال بلا تفكير:

ـ ماذا حل بكِ يا «داشيتا» لماذا تحاولين الاستهانة بالفتوحات العظيمة.. هيا معي فمازال ملكي ينتظرنا، فمصر وفارس، وما فتحت من بلدان تحت حكمي وسيطرتي.. و سأعود مرة أخرى لفتح الجنوب.؟ حتمًا سأعود.. فأنا لم أحارب بعد، وما هزمني سوى الصحراء.. الصحراء اللعينة.

قالت وقد صار صوتها كدوي الطبول:

ـ لا تخدع نفسك أيها الملك، فلم تهزمك الصحراء، وإنما هزمتك أنا..

كانت المفاجأة فوق ما يتخيل.. فصاح بها في ذهول وقد رانت على صدره كآبة ثقيلة:

ـ أنتِ هزمتيني..أنتِ..!! كيف..؟ ومن تكونين.. لتهزمي أعتى ملوك الأرض، أنتِ مجرد أمرأة خانت ملكها، وجاءتني لتضمن لقومها الأمان..

تنهدت ثم قالت بلهجة ساخرة:

ـ كان الأجدر بك أن تستمع للحظات، إلى أمك «نيتيتس» ساعتها فقط كنت ستعرف من أنا..

ـ «نيتيتس» مرة أخرى، أنا لم أعد أدري ماذا يحدث، ألم أُفضلكِ عليها، وأضعك في المكان الأقرب لقلبي.. أيتها الكاهنة، الساحرة، الطبيبة؟

قالت في جنون:

ـ أما الكاهن فهو أبي المصري الذي قتل، وهو يدافع عن أرضه ضد غزوك الغاشم، وأما الساحر فهو أخي الذي لحقه في حربه الطاهرة، و أما الطبيب، فهو

زوجي، الذي فقد ذراعيه وروحه، حتى لا تسقط راية بلاده، أما أنا يا سيدي فقد فقدت ولدي الذي كنت أحمله في بطني، وأنا أحاول اللحاق بهم، هل علمت الآن من أنا..؟ أنا هي الأميرة «داشيتا» أبنة أخت الفرعون المقتول« ابسماتيك الثالث»..

شعر« قمبيز» بأنه يفقد كل احساس بالمكان والزمان، ووجد صعوبة في التنفس و أخذ العرق يتصبب من جبينه، رغم برودة ليل الصحراء، رفع حاجبيه متسائلاً:

ـ وكيف تقولين أنكِ هزمتيني، وأنت بجواري..وكيف أستطعتِ أن تخدعيني طوال هذه الأيام و..

تبسمت أخيراً، وتحدثت في لكنه ساخرة:

ـ لقد خُضت ضدك حربًا لا دماء فيها، فأنا من دبرت ضياع قوافل المؤنة، و كل قرية تمر بها، كان رجالي يقومون بإخلائها قبل وصولك، لأدع رجالك الجائعين العطشى إلى شرب الدماء يلتهمون رمال الصحراء، بدلاً من أشلاء الأبرياء.. لقد هزمتك يا سيدي و أجبرتك على خيار من اثنين، الموت أو الانسحاب.. ويجب أن تعترف بذلك، فلا مفر، وها أنا بين يديك، وأعرف مصيري..



لقد هزمتك يا سيدي و أجبرتك على خيار من اثنين، الموت أو الانسحاب.. ويجب أن تعترف بذلك، فلا مفر.

لم يستطع أن يتحرك، أن يعاقبها، أن ينتقم..

كان ما يزال رغم كل شيء يشعر بحبٍ عنيف نحوها، حب لا يضاهيه حب، وهي التي وهبته حياته حين أنقذته من أنياب النمر، و زاده قوة وتعلقًا بها ما سمعه أخيرًا فهي ليست خائنة كما ظن بها، و هذا وحده كان كفيلاً بأن يحجب الحاجز العنيف الذي يفصله عنها.. قال وهو ينحني لها إجلالاً:

ـ من الشجاعة أن يعترف المهزوم، بهزيمته، وينحنى للمنتصر، وقد تعادلنا أخيرًا رغم كل شيء.. و أنا أدعوكِ رغم ذلك إلى رفقتي، فكما اعترفت لك بنصرك، أعترف أيضًا بأنني ما أحببت غيرك.. وأعلم أنكِ تبادلينني هذا الحب الذي يجعل لكل دقة في فؤادك صداها القوي في فؤادي، فلا تحاولي أن تغالطيني، أو تغالطي نفسك، تعالي معي، وسأجلسك بجواري على العرش لتحكمي العالم معي.

تراجعت خطوات إلى الوراء وقد بدأت الدموع تترقرق في عينيها..

قالت بكلمات مختنقة:

ـ أحكم العالم.. يالها من كلمة فقدت معناها، كان من الممكن أيها الملك أن تربح قلبي حقًا لو كنت أقل طموحًا، وأكثر رحمة.. فأنت قاتل قومي.. مهما ادعيت أنك منهم، فأنت مجرم أثيم تجري دمائهم جميعًا دافئة بين يديك..

في لحظات عاد إلى «قمبيز» شموخه، وتفتت ضعفه، قال في لهجة ملئها التحدي:

ـ قد يكون هذا الذي تقولينه حقًا بالنسبة لك ولقومك.. أعلم ذلك، ومهما فعلت فلن أستطيع أن أغير هذا الأمر أو أجمله، لكن ما تغفلين عنه هو أنني مهما حاولت الانتساب للمصريين، فهذا لا يجعلني أنسى أنني فارسي، وأن بابل هي وطني وحبي الأول، ومن بها هم شعبي، الذي رفعني وجعلني ملكا بعد أبي، وأنا بالنسبة لهم الفاتح العظيم، مذل الشعوب، وباني الحضارة، فحلم كل فارسيٍّ في بلادي أن يلد ولدًا مثلي.. وقد صار نصف من يولدون في فارس الآن اسمهم

«قمبيز»، أما مجدي فسيذكره شعبي أنا.. لا شعبك أنتِ.. كما مجدتم أنتم فراعنتكم وأسميتموهم عظماءا وفاتحين، بل بالغتم أحيانًا فعبدتموهم..

أفلتت منها صرخة مختنقة وهي تقول:

- والضحايا والدماء.. النساء والأطفال، كل هذا الثمن من أجل المجد.

- إذا كان جنودي قد عذبوكم و أذاقوكم ذل الاضطهاد، فإن جنودكم قد قسوا على الكثير من البلاد ولم يرحموا شعوبًا جاورتهم ولم تخضع لسلطانهم بل داسوا على كرامة المغلوبين بنعالهم.. إنها الحرب، يا سليلة الفراعنة العظام.. نعم الحرب اللعينة تلك الفترات الهابطة في حياة البشرية.

مرت لحظات من الصمت.. أحنت رأسها لتخفي تأثرها، وداعب بسيفه الرمال تحت قدمه.. رفع أخيرًا رأسه، لم يحاول في أول الأمر أن ينظر إلى وجهها، ولكنه فيما بعد اختلس نظرة ليري قسماتها أمام هذه المواجهة القاسية، فإذا هي تختلس إليه نظرة هي الأخرى ، فتقابلت النظرتان، ثم ارتدتا سريعاً إلى الخفض والانكسار، وأحس كلاهما بكل ما جاش في نفس صاحبه..!! قال لها بشيء من الانكسار المشبع بالاحترام:

- لقد انتصرتِ أيتها الأميرة المصرية، ونجحتِ في تلقيني درسًا، علمتني أن ليس باستطاعتي نيل كل ما أحلم به، مهما ملكت من الأرض، فامتلاك قلبك كان آخر أحلامي، وهذا ما أعرف أنه لا يمكنني إدراكه..

أعطاها لجام عربته الحربية، وهو يحاول أن يبتسم ليخفي دموعًا محتبسة تحاول أن تنفلت.. قال:

- أنتِ تعرفين طريقك جيدًا أيتها الزهرة السمراء التي هزمت أقوى ملوك الأرض، وأخذت قلبه أسيرًا لديها.. وداعًا.. كم تمنيت أن يكون بعده لقاء.

انتزعت ابتسامتها من بين دموعها قالت، وهي تخفي وجهها وتقفز على ظهر العربة الحربية:

ـ وداعًا أيها الملك النبيل.. وداعًا لا لقاء بعده..

وقف على ربوة مرتفعة يراقب ابتعادها وسط الظلام.. وبعد مسافة قريبة، توقفت، والتفتت نحوه مودعة..

رفع يده لها تاركًا سيفه يسقط أرضًا..

ولم ينزلها حتى ذابت بين المسافات.......

عاد بعدها بما تبقى من جيشه نحو منف، موحش النفس، تجثم عليه الكآبة، ويغشى صدره الوجوم، يتقلب بين مرضه وجوعه هو وجنده.. وفي أعماقه سؤال غامض لا يسمح له بالظهور، تراه أخطأ طريقه هذه المرة، لقد أحسّ بالطعنة وعرف أنه فقد الحلم.. لم يكن يدري ساعتها لماذا أخذ يتردد في أذنه صوت غريمه القديم فرعون مصر أبسماتيك الثالث»:

ـ أيها الملك الفارسي اقرأ البرديات، وما كُتب على جدران المعابد.. لترى تاريخنا.. ستُدرك ساعتها أنه لم يحتل هذه الأرض أحد وبقي فيها، فهي أرضٌ طيبة تحتضن أبناءها، ومن أحبها فقط، وتلفظ كل من اعتدى عليها و تقهر قاهريها.. فلا يجد المعتدي له فيها سوى قبر يؤيه.

أما الأميرة «داشيتا» فقد انطلقت بعربته الحربية، في طريق تعرفه جيدًا، وجدت في نهايته «حاروز» فأسرعت بلا وعي نحوه، و لأول مرة تلاقت أيديهما مشتاقة، وتشابكت أصابعهما بحرارة.. رغم نظرات الصمت.. وانطلقا معًا ولاحت على وجهيهما ابتسامة، لا تساويها جمالاً أية ابتسامة..

وقد عاشت «داشيتا» طويلاً، وكان لها الكثير من الأحفاد، جمعوا بين سمرة الوجوه، وطيبة القلوب، عشقوا الأرض، وزرعوها حُبًا، وقمحًا، وحضارة، وحكايات جميلة جمعت بين شعبين من أنقى شعوب الأرض، يجري بين شرايينهم نيلٌ واحد.

تمت بحمد الله

عبد الرحمن بكر